الإعجاز بالصَّرفة بين الحقيقة والبُطلان

دراسة وموازنة



إعداد:

الباحثة. خديجة عصام ريحان

دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن – قسم الكتاب والسنَّة بجامعة أمِّ القرى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ملخَّص البحث:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلام على رسوله الأمين، محمدٍ ﷺ.

وبعدُ..

فهذا بحثٌ بعنوان: **(الإعجاز بالصَّرفة بين الحقيقة والبُطلان- دراسة وموازنة)**، هدف إلى: تحرير مفهوم القول بالصَّرفة عند القائلين به، والاطِّلاع على آراءِ العلماء المتعلِّقة بالصَّرفة بين مؤيِّدٍ ومعارض، ثم الوصول إلى القول الصَّواب من خلالِ الموازنةِ بين أدلّة الفريقَين والترجيح بينهما، وقد اعتمد البحث المنهجَ الاستقرائي التحليلي، وتكوَّن من مقدِّمة، وثلاثة مباحثَ، وخاتمةٍ.

جاءت المقدِّمة مشتملة على (أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وأهداف الدراسة، والدِّراسات السَّابقة، ومنهج البحث، وخُطَّة البحث). وتناول المبحث الأول: مفهوم الإعجاز بالصَّرفة ونشأته، أما المبحث الثاني فتناول القائلين بالصَّرفة وأدلَّتهم، وجاء المبحث الثالث بعنوان: إبطال القول بالصَّرفة، وقد خُتِم البحث بخاتمة فيها أهمُّ النتائج التي توصَّلت إليها الباحثة، ومنها: أن القائلين بالصَّرفة لم يتَّفقوا على قولٍ واحد؛ فقد بالغ بعضُهم حتى جعل الصَّرفةَ هي الوجْهَ في إعجاز القرآن فقط دون الفصاحة والنَّظْم والبلاغة، وتَوسَّط بعضُهم فجمع بين النَّقيضين:

القولِ بالصَّرفة، والإعجازِ البلاغي، وبُطلان القول بالصَّرفة من جميع الوجوه؛ نقلًا وعقلًا وإجماعًا، واجتماع عددٍ من أهل العلم من مختلِفِ المذاهب العَقَدية على نَبْذِ القَول بالصَّرفة، وإنكارِهِ واستهجانِ القول به.

واللهُ وليُّ التوفيق، وصلَّى الله وسلَّم على سيِّدنا وحبيبنا وقدوتنا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز – الصرفة – مُجاراة القرآن.

Abstract:

Praise be to Allah, Lord of the Worlds, and blessings and peace .be upon His faithful Messenger, Muhammad, peace be upon him

This research entitled: **(Miracles by Turning People Away from producing something similar to the Qur'an, between Truth and Falsehood, study and balancing)**, aimed to edit the concept of turning Arabs away from producing something similar to the Qur'an among those who say this, and see the views of scientists related to this concept, be it supporters or opponents, and then get to the right saying by balancing the evidence of the two groups and weighting between them. The research has adopted the inductive analytical approach, and it is made up of an introduction, three sections, and a .conclusion

The introduction included (the importance of the topic, the reasons for choosing it, the objectives of the study, previous studies, research methodology, and research plan). The first topic dealt with the concept of the miracles by turning people away from producing something similar to the Qur'an and its origin, the second section dealt with those who say this concept and their evidence, and the third section entitled: "invalidation of the saying of the turning away". The research concludes with the most important findings, including: that those who believe in the turning away did not agree on one saying; where some of them have exaggerated making the turning away the only aspect in the miracles of the Qur'an excluding eloquence, art of composing and rhetoric, and some have compromised combining the two extremes: the saying of the turning away and rhetorical miracles and the invalidity of the saying of the turning away in all respects, in terms of transmission, reason and consensus, and the convergence of a number of scholars from different doctrinal schools of thought to

reject the saying of the turning away, and to deny it and disapprove the saying of it. The research was appended with a list of sources and references.

May Allah grant success, and prayers and peace be upon our beloved and role model Prophet Muhammad, and upon all his family .and companions

.**Keywords**: miracles – turning away – matching the Qur'an

المقدِّمة:

الحمدُ للهِ الذي أنزل كتابَه هدايةً للعالمين، ورحمةً للمؤمنين، وتَبصِرة للمتَّقين، وشِفاءً لِما في صدور الناس أجمعين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على المبعوثِ رحمةً للعالمين، وعلى آله الطَّاهرين وأصحابه الطيِّبين، ومن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين.

أمَّا بعدُ..

فقد كان من كمالِ الرَّحمة الإلهيَّة بالبشَر إرسالُ الرُّسل إليهم مبشِّرين ومُنذِرين؛ يَهدُونهم بالحقِّ إلى صراطٍ مستقيم، ويُخرجونهم من غياهب الظُّلمات إلى النُّور، ويأمُرون بالعدل والإحسان، ويَنْهَون عن الظُّلم والعُدوان، وكان من سُنن الله في ذلك تأييدُ رُسُله بالمعْجزات الباهرات؛ حتى يُبطِل بها كيدَ الخائنين، ويُقِيم الحُجَّةَ على البشَرِ أجمعين، ولمَّا كان المصطفى ﷺ خاتمَ الأنبياء وسيِّدَ المرسَلين، ورسولًا إلى النَّاس أجمعين، أيَّده اللهُ بالمعْجِزات الحِسِّيَّةِ كغَيره من الأنبياء، وميَّزه عنهم بالمُعْجِزةِ الخالدة إلى يوم الدِّين، كتابِ الله، الذي لا تَنقضي عجائبُه، ولا تَنْفَد خزائنُه؛ أفصحِ الكلام بيانًا، وأحسنِه حديثًا، المتكفَّل بحِفظِه ليَهتدي به النَّاسُ إلى سبيلِ ربِّ العالمين، المعْجِزِ في ذاته ولفْظه، الذي لو اجتمعت الجِنُّ والإنسُ على أنْ يأتُوا بمثْله لا يأتُون ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظَهيرًا، وقد استقرَّ الإيمانُ بإعجاز القرآن في ذاته عند أهلِ السنَّة والجماعة، إلى أنْ ظهرت الفِرَقُ المنحرفة، وبرز القولُ بالصَّرفة، وشَغَلَ العلماءَ بين مؤيِّدٍ ومُعارض.

ولِذا فقد اخترتُ لبحثي عنوان: (الإعجاز بالصَّرفة بين الحقيقة والبطلان، دراسةٌ وموازنة)؛ لدراسةِ هذا القول، واستعراض أدلَّته ومناقشتها، والموازَنة بينه وبين القَول السَّابق له.

أهميَّة الموضوع وأسباب اختياره:

١. ارتباطُ الموضوع بكتابِ الله، وعلومُه هي أشرف العلوم وأسْماها.
٢. الدِّفاع عن كتاب الله والذَّبُّ عنه بكشفِ الشُّبهات التي تعلَّقت به منذ القرون الأولى.
٣. بيانُ بعض أوجُه الإعجاز المتعلِّقة بكتابِ الله.
٤. تحريرُ مفهومِ القولِ بالصَّرفة، ومعرفةُ المذهب الذي نشأت عنه.

أهداف دراسة الموضوع:

١. تحرير مفهوم القول بالصَّرفة عند القائلين به.
٢. الاطِّلاع على آراءِ العلماء المتعلِّقة بالصَّرفة بين مؤيِّدٍ ومعارض.
٣. الوصول إلى الرَّأي السَّديد والقول الصَّواب من خلالِ الموازنةِ بين أدلّة الفريقَين والترجيح بينهما.

الدِّراسات السَّابقة:

١. الموضح عن جهة إعجاز القرآن "الصَّرفة"، كتابٌ مطبوع للشَّريف المرتضى علي بن حسين المُوسَوي.
٢. القولُ بالصَّرفة في الإعجاز القرآني بين المؤيِّدين والمعارضين، بحثٌ علمي محكَّم من كليَّة الدَّعوة وأصولِ الدِّين بالأزهر، للدكتور رزق أبي النَّجا البَهْنَسي.
٣. القولُ بالصَّرفة في إعجازِ القرآن –عرضٌ ونقد، بحثٌ علمي محكَّم، للدكتور محسن سميح الخالدي.
٤. الصَّرفة والإعجازُ القرآني ما لها وما عليها، بحثٌ علمي محكَّم، لعمَّار توفيق بدوي.

٥. القولُ بالصَّرفة في إعجاز القرآن الكريم– عرضٌ ونقد، بحثٌ علمي محكَّم، للدكتور إبراهيم من منصور التركي.
٦. القولُ بالصَّرفة في إعجازِ القرآن – عرضٌ ونقد، بحثٌ علمي محكَّم، للدكتور عبد الرحمن بن معاضة الشهري.
٧. الصَّرفة ملامحها وأبعادها في الفكر الإسلاميّ، للسيّدِ جعفر السيّدِ باقر الحُسيني.
٨. القولُ بالصَّرفة والإنباء بالغيب، بحثٌ منشور، للدكتور حسين نصَّار.
٩. المتَّهمون بالصَّرفة –دراسةٌ تحليليَّة نقديَّة، للدكتور محسن الخالدي.
١٠. الإعجازُ بالصَّرفة وأوجـُه فساده في ضـوءِ القرآن الكريم، للدكتور صدِّيق أحمد مالك.
١١. الإعجاز البلاغي – دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ١٩٩٧م– ١٤١٨هـ.
١٢. الصَّرفة ونشأتها بين مؤيّدٍ ومعارض، بحثٌ منشور، لمحمد فقهاء.
١٣. تأصيلُ دراسات إعجازِ القرآن بين الصَّرفة والنظم، بحثٌ منشور، للباحث عبَّاس النصراوي.

وهذه الدِّراساتُ قيّمة في بابها، إلَّا أنَّني في هذا البحث سأسلكُ منهجَ التوسُّط في استعراضِ القولِ بالصَّرفة وأدلَّته ثمَّ نقضه من خلالِ أقوالِ المعارضين وأدلَّتهم، دون إطالةٍ مملَّة ولا اختصارٍ مُخلٍّ إن شاء الله.

منهج البحث:

اعتمد البحث المنهجَ الاستقرائي التحليلي، وسار وفق الإجراءات التالية:
١. تتبُّع أبرز الأقوال المؤيّدِة للصَّرفة وجمعُها مع أدلَّتها.
٢. تتبُّع الفرق والمذاهب التي تبنَّت القولَ بالصَّرفة بحسَب الاستطاعة.

٣. دراسة تلك الأقوال للموازَنة بينها، والرَّدُّ على القول المنحرف؛ مستنيرةً – بعد توفيق الله وفضله– بأقوال أهل السُّنَّة والجماعة، وأهلِ العلم الرَّاسخين من المذاهب الأخرى الذين وافقوا الحقَّ في هذه المسألة.

٤. ترتيب الأقوال بحسَب التَّرتيب الزَّمني، إلَّا ما اقتضت الحاجةُ خِلافه.

٥. ترجمة الأعلام الذين لهم صلة وثيقة بموضوع البحث، ترجمةً مختصرة.

خطَّة البحث:

يتكوَّن هذا البحثُ من مقدِّمةٍ، وثلاثةِ مباحثَ، وخاتمةٍ؛ على النَّحو الآتي:

المقدِّمة: فيها (أهميَّة الموضوع وأسباب اختياره، وأهداف الدِّراسة، والدِّراسات السَّابقة، وخُطَّة البحث، ومنهجيَّة البحث).

المبحث الأوَّل: تعريف الصَّرفة ومفهومها، وفيه مطلبان:

- المطلب الأوَّل: مفهوم القول بالصَّرفة.
- المطلب الثاني: نشأة القول بالصَّرفة.

المبحث الثاني: القائلون بالصَّرفة وأدلَّتهم، وفيه مطلبان:

- المطلب الأوَّل: القائلون بالصَّرفة.
- المطلب الثاني: أدلَّة القائلين بالصَّرفة.

المبحث الثالث: إبطال القول بالصَّرفة.

الخاتمة: فيها أهمُّ النَّتائج التي توصَّلت إليها الباحثة.

فهرس المصادر والمراجع.



المبحث الأَوَّل

تعريف الصَّرفة ومفهومها

المطلب الأول: مفهوم القول بالصَّرفة

أوَّلًا: الصَّرفة في اللُّغة:

أصلها من الصَرْفُ، ولها عدَّةُ معانٍ، منها:

- الصَّرْفُ: الدَّفعُ والرَّدُّ للشَّيء عن وجهه[1]؛ وهو: أن تَصرِفَ إنسانًا عن وجهٍ يُريده إلى مَصْرِفٍ غيرِ ذلك[2]، ومنه قولُه تعالى: {ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ}[3] أي: رجعوا عن المكان الذي استمعوا فيه، وقيل: انصرَفوا عن العمل بشيءٍ ممَّا سمعوا، ومنه تصريفُ الرِّياحِ؛ أي: تصريفُها من وجهٍ إلى وجهٍ ومن حالٍ إلى حال، وكذلك تصريفُ السُّيُول والأمُور[4].
- والصَّرْفةُ: مِنزِلٌ من منازل القمر، وسُمِّيَ صَرْفةً لانصراف البَرْدِ عند طلوعه ودخولِ الحَرِّ[5].

ثانيًا: مفهوم القول بالصَّرفة عند القائلين بها:

الصَّرفة بمفهومها العامِّ: هي الصَّرفُ عن مُعارَضة القرآن لأسبابٍ خارجية؛ والمرادُ بذلك: أنَّ إعجازَ القرآن ليس في ذاته، وإنَّما في أمرٍ خارجي؛ وهو العائقُ الذي صرفهم عن المعارَضة.

ثمَّ اختلف القائلون بالصَّرفة بعد ذلك في الوجْه الذي صرف اللهُ به العربَ عن المعارَضة؛ على قَولَين:

([1]) ينظر: مقاييس اللغة (٣/٣٤٢)، والمحكم والمحيط الأعظم (٨/٣٠١)، والمفردات في غريب القرآن (ص٤٨٢)، والتَّعريفات (ص١٣٢).

([2]) ينظر: المحيط في اللُّغة (٢/٢١٩).

([3]) سورة التَّوبة، آية ١٢٧.

([4]) ينظر: العين (٧/١٠٩)، وتهذيب اللغة (١٢/١١٤).

([5]) ينظر: العين (٧/١١٠)، والأزمنة وتلبية الجاهلية (ص: ٢٣)، وشمس العلوم (٦/٣٧١٢).

القول الأوَّل: أن يكون المرادُ بالصَّرفة هو: أنَّ الله – تعالى– صرف هِممَ العرب وثبَّطهم عن المعارَضة مع توفُّر الدواعي وأسبابها؛ مِن التَّقريعِ بالعَجْز، والاستنزالِ عن المراتب العالية، والتكليفِ بالانقياد والخضوع، ومخالَفةِ الأهواء، وهو أوَّلُ قولٍ ظهر في الصَّرفة[١].

القول الثاني: أن يكون المرادُ بالصَّرفة هو: أنَّ الله – تعالى– سلبهم العلومَ التي تمكِّنهم من الإتيان بما يشاكل القرآنَ ويقاربه، ثمَّ إنَّ سَلْبَ العلوم يمكن تنزيلُه على: أنَّ تلك العلومَ كانت حاصلةً لهم على جِهة الاستمرار، لكنَّ الله – تعالى– أزالها عن أفئدتهم ومَحاها عنهم[٢].

ثمَّ اختلف القائلون بالصَّرفة بعد ذلك في القدرة على مُشاكَلة القرآن والإتيان بمثْله؛ هل كان في مقدور العرب لَوْلا الصَّرفةُ التي صرفهم اللهُ بها عنها أو لا؟ على قولَين:

قال الماوَرْديُّ: "واختلف مَن قال بها: هل صُرفوا عن القُدرة على مُعارَضته، أو صُرفوا عن معارَضته مع دخوله في مقدورهم؟ على قولين؛ أحدُهما: أنهم صُرفوا عن القُدرة ولو قَدَرُوا لَعارضوه، والقولُ الثاني: أنهم صُرفوا عن المُعارَضة مع دخوله في مقدورهم"[٣].

وقال القاضي عبدُ الجبَّار: "واعلمْ أنَّ الخلافَ في هذا الباب أنَّا نقول: إنَّ دواعيَهم انصرفتْ عن المُعارَضة لِعلمِهم بأنَّها غيرُ ممكِنة، على ما دَللنْا عليه، ولَوْلا عِلمُهم بذلك لم تكن لِتَنصرفَ دواعيهم؛ لأنَّا نجعل انصرافَ دواعيهم تابعًا لمعرفتهم بأنَّها متعذِّرةٌ، وهُم يقولون: إنَّ دواعيَهم انصرفتْ مع التَّأتِّي، فلأجْل

---

(١) ينظر: بيان إعجاز القرآن (ص٢٢)، وإعجاز القرآن، للباقلاني (ص١٣)، والموضح عن جهة إعجاز القرآن (ص٣٥)، والطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (٢١٨/٣).

(٢) ينظر: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (٢١٨/٣)، وإعجاز القرآن والبلاغة النَّبوية (ص١٠١)، والمعجزة الكبرى القرآن (ص٦٠)، ومباحث في إعجاز القرآن (ص٦٢).

(٣) أعلام النبوَّة (ص٨٩).

انصراف دواعيهم لم يأتُوا بالمعارَضة مع كَونها مُمكِنةً، فهذا موضِعُ الخلاف، وعلى المذهبَين جميعًا لا بُدَّ من القول بأنَّ دواعيَهم انصرفت عن المعارَضة؛ لأنَّ مع العلم بأنَّها متعذِّرةٌ لا بُدَّ مِن ذلك عندنا، وعندهم لا بُدَّ منه؛ لأنَّه الوجهُ الذي لأجْله لم يأتُوا بالمعارَضة التي هي مُمكِنةٌ لهم"[١].

ويُستخلص ممَّا سبق: أنَّ مُفادَ القول بالصَّرفة هو أنَّ العربَ قد صُرفوا عن مُجاراة القرآن؛ إمَّا بصرْف هِممِهم، وإمَّا بسلْبِ العلوم التي تمكِّنُهم منه.

ويتبيَّن من ذلك: أنَّ العلاقةَ المشتركة بين الصَّرفة في اللُّغة وفي الاصطلاح هو: الرَّدُّ والمنعُ، والدَّفعُ من شيءٍ إلى شيء، ومن اتِّجاهٍ إلى آخَر.

المطلب الثاني: نشأة القَول بالصَّرفة:

يحدِّثنا التاريخُ عن الحِقبة الزَّمنية التي سبقت البَعثةَ النَّبويَّة؛ إذ كان العربُ – من جهة الثَّقافة– على درجةٍ عاليةٍ من الفصاحة والبلاغة والخَطابة، وكانت قريشٌ أفصحَ العرب ومركزَها ويَنبُوعَها، حتى تَناهت البلاغةُ نظمًا ونثرًا على ألسُنِ فُصحاء العرب من قريشٍ، ويَصِفُ التاريخُ ذلك قائلًا: إنَّ العرب في جاهليَّتهم كانوا إذا قال الرَّجلُ منهم الشِّعرَ لا يَعبأ به ولا يُنشِده أحدًا، حتَّى يأتيَ مكةَ في موسم الحجِّ فيَعرِضَه على أندية قريش؛ فإنِ استحسنوه رُوِيَ وكان فخرًا لقائله، وعُلِّقَ على رُكنٍ من أركان الكعبة، وإنْ لم يَستحسنوه طُرح ولم يُعبأ به[٢].

ولمَّا كانت العربُ – كما ذكْرنا – أهلَ فصاحة وبلاغة، وكانوا في أزهى عصور البيان العربي، وأرقى أدوار التَّهذيب اللُّغوي؛ فقد امتنَّ اللهُ – سبحانه وتعالى– على البشريَّة ببَعثة النبيِّ ﷺ لِيُخرِجَهم من ظُلمات الجهل والضَّلال

---

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل (١٦/٩٠).

(٢) ينظر: خزانة الأدب (١/١٢٦)، وتاريخ العرب القديم (ص: ٢٧٣)، والمفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١٦/٢٦٥).

إلى نُور العلم والهداية، وقد أيَّده اللهُ – سبحانه وتعالى– بالمعجزات الحسِّيَّة الباهرة، وميَّزه بالمعُجِزة العقلية الخالدة إلى يوم الدِّين[١].

وقد جاءت المعجزةُ الخالدة – وهي القرآنُ الكريم– بأعلى طبقات الفصاحة والبلاغة، ثمَّ تَحدَّاهم بأن يأتُوا بمثْلِه أو بآيةٍ من مثْله، فعَجَزوا عن ذلك وهُم أَقحاحُ العرب وأربابُ الفصاحة.

يقول الدكتور محمد دِرَاز واصفًا تلك الحِقبة التَّاريخية: "فما هو إلَّا أنْ جاء القرآنُ وإذا الأسواقُ قد انفضَّتْ إلَّا منه، وإذا الأنديةُ قد صَفِرتْ إلَّا عنه، فما قَدَرَ أحدٌ منهم أن يُباريَه أو يجاريَه؛ ذلك على أنَّه لم يَسُدَّ عليهم بابَ المُعارَضة، بلْ فتحه على مِصراعَيه، ودعاهم إليه أفرادًا أو جماعاتٍ، وتَحدَّاهم وكرَّر عليهم ذلك التَّحدِّي في صُوَرٍ شتَّى، متهكِّمًا بهم متنزِّلًا معهم إلى الأخفِ فالأخفّ؛ فدعاهم أوَّلَ مرَّة أن يجيئوا بمثْله، ثمَّ دعاهم أن يأتُوا بعَشر سُوَرٍ مثْلِه، ثم أن يأتوا بسُورةٍ واحدةٍ مِثْلِه، ثمَّ بسُورةٍ واحدة مِن مثْله، وأباح لهم – في كلِ مرَّة– أنْ يستعينوا بمن شاؤوا ومن استطاعوا، ثم رماهم والعالَمَ كلَّه بالعَجْزِ في غير مُوارَبة فقال: {قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا}[٢]، وقال: {فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ}[٣]، فانظُرْ أيَّ إلهابٍ وأيَّ استفزاز! لقد أَجهَز عليهم بالحُكمِ الباتِّ المؤبَّد في قوله {وَلَن تَفۡعَلُواْ}، ثمَّ هدَّدهم بالنَّار، ثمَّ سوَّاهم بالأحجار، فلَعَمْرِي لو كان فيهم لسانٌ يتحرَّك

---

(١) يقول السِّيوطي: "وأكثرُ معجزات بني إسرائيل كانت حِسِّيَّةً لِبَلادتهم وقِلَّة بَصيرتهم، وأكثرُ معجزات هذه الأمَّة عقليةٌ لِفَرطِ ذكائهم وكمال أفهامهم، ولأنَّ هذه الشَّريعة لمَّا كانت باقيةً على صفحات الدَّهر إلى يوم القيامة خُصَّتْ بالمعجزة العقلية الباقية لِيَراها ذَوو البصائر". الإتقان في علوم القرآن (٣/٤).

(٢) سورة الإسراء، آية ٨٨.

(٣) سورة البقرة، آية ٢٤.

لَمَا صمتوا عن مُنافسته وهُم الأعداءُ الألِدَّاء، وأُباةُ الضَّيم الأعزَّاء، وقد أصاب منهم مَوضِعَ عِزَّتهم وفَخارهم، ولكنَّهم لم يجدوا ثَغْرةً يَنفُذون منها إلى مُعارضته، ولا سُلَّمًا يَصعَدون به إلى مُزاحَمته، بل وجدوا أنفُسَهم منه أمامَ طَوْدٍ شامخ، {فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾}[1].

ولقد تَوالَت الأيامُ والتَّحدِّي لا يزال قائمًا على أن يأتُوا بمثْله، وسجَّل التاريخُ عَجْزَهم عن ذلك إلى يومنا هذا؛ فقد أذعن مَن سمع القرآن طَوعًا أو كَرهًا، واستقرَّ في النفوس أنَّ إعجاز القرآن ذاتيٌّ في ألْفاظه وأسلوبه، وفي بيانه ونَظْمه ورَصْفه، وفي أسراره وعجائبه التي لا تَنفَد؛ فقد أَبهرَ العلماءَ ببيانه، وسلب ألْبابَهم إعجابًا بفصاحته وبلاغته، فنَهَلُوا من علومه، واسْتَقَوْا من مَشاربه، إلى أن برز القولُ بوجهٍ آخَرَ في الإعجاز القرآني في أواخر القرن الثَّاني، تَزعَّمه رأسٌ من رؤوس المعتزلة، ضاربًا بما سار عليه سَلَفُ الأمَّة عُرْضَ الحائط، مبتدعًا فيه قولَ الباطل؛ وهو القولُ بالإعجاز بالصَّرفة الذي فُتن به البعضُ، وشايَعه عليه آخَرون، وقد اختلف أهلُ العلم في مَنشَأ القول بالصَّرفة؛ فرأى بعضُهم أنَّ نشأة القول بالصَّرفة أجنبيٌّ ثمَّ تَوارَد إلى بيئة المسلمين نتيجةَ الجوِّ العلميّ والمعرفيّ العامِّ، وما نتج عنه مِن حركة التَّرجمة التي تميَّز بها العصرُ العبَّاسي في تلك الحِقبة، وكان هذا السَّببُ كفيلًا بنقل كثيرٍ من الثَّقافات والأفكار إلى ديار المسلمين.

وممَّن أشار إلى هذا القول الشَّيخُ محمد أبي زَهْرة ناسبًا هذا القولَ إلى البراهمة؛ إذ يقول: "إنَّ بعض المتفلسفين مِن علماء المسلمين اطَّلَعُوا على أقوال البراهمة في كتابهم "الفيدا"؛ وهو الذي يشتمل على مجموعةٍ من الأشعار ليس في كلام النَّاس ما يماثلها في زَعْمِهم، ويقول جمهورُ علمائهم: إنَّ البَشَر يَعجِزون عن أن يأتُوا بمثْلها؛ لأنَّ براهْما صرفهم عن أنْ يأتُوا بمثْلها. يقول في ذلك أبو الرَّيحان البَيْرونيُّ في كتابه (ما للهند من مقُولةٍ مقبولةٍ في العقل أو مرذولةٍ) ما نصُّه: "إنَّ خاصَّتهم

---

(1) سورة الكهف، آية ٩٧.

يقولون: إنَّ في مقدورهم أن يأتُوا بأمثالها، ولكنَّهم ممنوعون من ذلك احترامًا لها"، ولم يبيِّن البَيْرونيُّ وجْهَ المنع؛ أهُوَ منعٌ تكليفي يَسبِقه الإيمانُ بهذه الكتب وتكوُّنُ دلائل وجوب الإيمان مِن نواحٍ أخرى، أمْ هُو منعٌ تكويني بمعنى: أنَّ براهْما صرفهم – بمقتضى التَّكوين– عن أن يأتوا بمثْلها؟ والأخيرُ هو الظاهر؛ لأنَّه هو الذي يتَّفق مع قول جمهور علمائهم، وما اشتهَروا من أنَّ القول بالصَّرفة نَبَعَ في واديهم"[1].

وكذا أشار إلى هذا القول الأديبُ مصطفى صادق الرَّافعيُّ ناسبًا القولَ بالصَّرفة إلى الفلسفة اليونانية حيث يقول: "ثمَّ لمَّا نجَمَتْ آراءُ المعتزلة – بعْد أن أقبل جماعةٌ مِن شياطينها على دراسة كُتب الفلسفة ممَّا وقع إليهم عن اليونان وغيرهم– نَبَغَتْ لهم شؤونٌ أخرى مِن الكلام؛ فمَزَجُوا بين تلك الفلسفة – على كونها نظرًا صِرْفًا– وبين الدِّين على كونه يقينًا مَحْضًا، وتَغَلْغَلُوا في ذلك حتَّى خالَف بعضُهم بعضًا بمقدار ما يختلفون في الذَّكاء وبُعد النَّظر؛ فتَفرَّقوا عَشْرَ فِرَق، واختلفتْ بهذا آراؤهم في وجْه إعجاز القرآن اختلافًا يقوم بعضُه على بعض؛ فيبدأ فارغًا وينتهي كما بدأ، وإنْ كَثُرَ في ذاتِ نفْسه"[2].

وعلى الجانب الآخَر يرى آخَرون من أهل العلم أنَّ القولَ بالصَّرفة مَنْشؤهُ عربيٌّ خالص، وممَّن أشار إلى ذلك ونبَّه عليه عبدُ القاهر الجُرْجانيُّ حيث يقول: "اعلَمْ أنَّ الذي يقع في الظَّنِّ من حديث القَول بالصَّرفة أنْ يكونَ الذي ابتدأ القولَ بها ابتدأه على توهُّمِ أنَّ التَّحدِّي كان إلى أن يُعبَّر عن أَنفُس معاني القرآن بمِثْل لَفْظه ونَظْمه، دون أن يكونَ قد أُطلِق لهم وخُيِّروا في المعاني كلِّها؛ ذاكَ لأنَّ في القَول بها – على غير هذا الوجه– أمورًا شَنيعةً يبعُد أنْ يرتكبَها العاقلُ ويدخُلَ فيها"[3].

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن (ص: ٥٧).

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النَّبوية (ص: ١٠١).

(٣) الرسالة الشَّافية (ص١٤٦).

ويرى ابنُ كثير كذلك أنَّ هذا القول نابعٌ من مُعتقَد المعتزِلة بخَلْقِ القرآن حيث يقول: "وأمَّا مَن زعم مِن المتكلّمين أنَّ الإعجازَ إنَّما هو مِن صَرْفِ دَواعي الكَفَرَة عن مُعارَضته مع إمكان ذلك، أو هو سَلبُ قدرتهم على ذلك؛ فقولٌ باطل، وهو مُفَرَّعٌ على اعتقادهم أنَّ القرآنَ مخلوقٌ خلقه اللهُ في بعض الأجرام، ولا فَرْقَ عندهم بين مخلوقٍ ومخلوق"[1].

والذي يَظهر أنَّه ليس هناك قولٌ قاطع أو دليلٌ لا يمكن أنْ نَحِيدَ عنه في منشأ القَول بالصَّرفة، وتبقى جميعُ الاحتمالات التي ذكرها أهلُ العلم في ذلك واردةً؛ فقد يكون منشؤهُ من الثقافات الغربية؛ إذْ لا يَخفَى على كلِّ مُطَّلِعٍ النَّهَمُ المعرفي الذي أصاب المتكلِّمين والفلاسفةَ للاطِّلاع على كُتب الثَّقافات الغربية في ذاك العصر. والله أعلم.



(1) البداية والنهاية (٥٤٧/٨).

المبحث الثاني
القائلون بالصَّرفة وأدلَّتهم

المطْلب الأوَّل: القائلون بالصَّرفة:

أوَّلًا- أبرز القائلين بالصَّرفة من المعتزلة:

١- النَّظَّام[١]:

هو أوَّلُ مَن جهر بالقَول بالصَّرفة، واشتهر بها حتَّى صار القولُ بالصَّرفة مقرونًا باسْمه، منسوبًا إليه، معروفًا من خلاله[٢]؛ فنجده يقرِّر مذهبَ الصَّرفة ويؤكِّده بقوله: "إنَّ الآيةَ والأُعجُوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأمَّا التأليفُ والنَّظْمُ فقد كان يجوز أن يَقدِرَ عليه العبادُ لَوْلا أنَّ الله منعهم بمَنعٍ وعَجْزٍ أَحدَثَهما فيهم"[٣].

---

(١) هو: أبو إسحاق، إبراهيم بن سيَّار بن هانئ النظَّامُ البَصْريُّ، قيل: إنَّما لُقِّب بذلك لحُسن كلامه نَظمًا ونَثرًا، وقيل: إنَّما سُمِّيَ بذلك لأنَّه كان يَنظِمُ الخَرَزَ بسُوق البَصْرة ويبيعه، وهو شيخُ المعتزلة، ومِن المتكلِّمين في القَدَر. قال بعض أهل العلم: كان النَّظَّامُ على دِين البراهمة المنكِرِين للنُّبوَّة والبعث ويُخفِي ذلك، واتَّهمه آخَرون بالزندقة. توفي عام ٢٣١هـ. ينظر: تاريخ بغداد (٦٢٣/٦)، وسير أعلام النبلاء (٥٢٩/٨)، والوافي بالوَفَيات (١٢/٦).

(٢) يقول الأستاذ مصطفى صادق الرَّافعي: "لمَّا نجَمَتْ آراءُ المعتزلة بعد أنْ أقبل جماعةٌ من شياطينها على دراسة كتب الفلسفة ممَّا وقع إليهم عن اليونان وغيرهم نَبَغَتْ لهم شؤونٌ أخرى من الكلام، فمزجوا بين تلك الفلسفة - على كونها نظرًا صِرفًا- وبين الدِّين على كونه يقينًا محضًا... فذهب شيطانُ المتكلِّمين أبو إسحاقَ، إبراهيمُ النَّظَّامُ إلى أنَّ الإعجاز كان بالصَّرفة؛ وهي أنَّ اللهَ صرف العربَ عن معارضة القرآن مع قُدرتهم عليها، فكان هذا الصَّرفُ خارقًا للعادة". إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص١٠١).

ويقول أبو زَهْرَة عنه: "فهُو أوَّلُ مَن جاهر به، وأعلنه ودعا إليه، ولاحَى عنه كأنَّه مسألةٌ من مسائل علم الكلام، ونقول: إنَّه أوَّلُ مَن جهر به، ولا نقول: إنَّه أوَّلُ مَن فكَّر فيه، أو أوَّلُ مَن ابتدأ القولَ به؛ لأنَّ الأفكار لا يُعرف ابتداؤها وهي تتكوَّن في خلاياها، بل لا تُعرف إلَّا بعد أن تَظهَر ويُجاهَر بها". المعجزة الكبرى القرآن (ص: ٥٩).

(٣) ينظر: مقالات الإسلاميِّين (١٧٩/١).

ويقول عن إعجاز القرآن: "إنَّه من حيث الإخبارُ عن الأمور الماضية والآتية، ومِن جهة صَرفِ الدَّواعي عن المعارضة، ومنعِ العرب عن الاهتمام به جَبرًا وتعجيزًا، حتَّى لو خلَّاهم لَكانوا قادرين على أن يأتُوا بسُورةٍ من مثْله بلاغةً وفصاحةً ونَظْما"[1].

ويقول أيضًا: "نَظْمُ القرآن وحُسْنُ تأليف كلماته ليس بمُعجِزةٍ للنَّبي ﷺ، ولا دلالةٍ على صِدقه في دعواه النُّبوَّةَ، وإنَّما وجهُ الدَّلالة منه على صِدقه ما فيه مِن الإخبار عن الغُيوب، فأمَّا نظمُ القرآن وحُسْنُ تأليف آياته فإنَّ العِبَادَ قادرون على مِثْله وعلى ما هو أحسنُ منه في النَّظم والتَّأليف"[2].

وخُلاصةُ رأي النَّظَّام: أنَّ الإعجازَ ليس في نَظْم القرآن وبلاغته؛ إذ هذه الأمورُ عنده داخلةٌ في إمكانيَّات البشَر، والعربُ - بفصاحتهم وبلاغتهم- كانوا قادرين على الإتيان بمِثْله أو أحسنَ منه، إلَّا أنَّ الله أَعجَزهم بتثبيطِ قُوَاهم وصَرْفِ هِمَمِهم عن معارَضته على وجْه الجَبْرِ والقَسْر، وهذا هو وجهُ الإعجاز في القرآن الكريم مِن منظوره.

٢ - المُرْدار[3]:

كان رأيُه موافقًا لرأي النظَّام؛ إذ نُقل عنه أنه كان يرى بُطلانَ القول بإعجاز القرآن، ويزعُم أنَّ النَّاسَ قادرون على الإتيان بمثْل هذا القرآن، وبما هو أفصحُ منه[1].

---

(1) ينظر: المِلل والنِّحل (٥٦/١).

(2) ينظر: الفَرق بين الفِرق (ص: ١٢٨).

(3) هو: أبو موسى، عِيْسَى بنُ صَبِيْحٍ، الملقَّب: بالمُرْدار البَصْرِيّ، راهبُ المعتزلة، وإليه تُنسب فرقةُ المُرْدارية. تَزهَّد وتَعبَّد، وتَفرَّد بمسائلَ ممقوتةٍ؛ فزعم أنَّ الرَّبَّ يَقدِر على الظُّلْم والكَذِب، ولكنْ لا يفعله، وقال بكُفر مَن قال: القرآنُ قديم، وبكُفر مَن قال: أفعالُنا مخلوقة. تُوفي عام ٢٢٦هـ. ينظر: أخبار النَّحويّين البصريّين (ص: ٣٧)، والمِلل والنِّحل (٦٨/١)، وسِير أعلام النُّبلاء (٥٣٣/٨).

٣- الجاحظ[٢]:

هو تلميذُ النَّظَّام، وقد ظهر تأثُّره به في مذهب الصَّرفة فصرَّح قائلًا: "ومِثلُ ذلك ما رُفع مِن أوهام العرب، وصَرَف نُفوسَهم عن المعارَضة للقرآن بعد أن تحدَّاهم الرَّسولُ بنَظْمه؛ ولذلك لم نجد أَحدًا طَمِع فيه، ولو طَمِعَ فيه لتَكلَّفه، ولو تَكلَّف بعضُهم ذلك فجاء بأمرٍ فيه أدنى شُبهة لعَظُمَت القصَّةُ على الأعرابِ وأشباه الأعراب، والنِّساءِ وأشباه النِّساء، ولأَلْقَى ذلك للمسلمين عملًا، ولَطلبوا المحاكمةَ والتَّراضي ببعض العرب، ولَكَثُرَ القِيلُ والقال"[٣].

وقال في مَوضعٍ آخَر: "وقد قلنا في باب القول في الهُدهُد ما قلنا حين ذكرْنا الصَّرْفةَ... وذكرْنا مِن صرفِ أوهام العرب عن محاوَلة معارَضة القرآن، ولم يأتُوا به مضطرِبًا ولا مُلفَّقًا ولا مُستكْرَها؛ إذْ كان في ذلك لأهل الشَّغْب مُتعلَّق"[٤].

غيرَ أنَّه قد صرَّح كذلك في مواضعَ أخرى بإعجاز القرآن في نَظْمه وتركيبه وفصاحته وبلاغته فقال: "وكذلك دهرُ محمَّدٍ ﷺ، كان أغلبُ الأمور عليهم وأحسنُها عندهم وأجلُّها في صدورهم حُسْنَ البيان، ونَظْمَ ضُروب الكلام، مع عِلمِهم له وانفرادِهم به. فحين استحكمتْ لُغتُهم، وشاعت البلاغةُ فيهم، وكَثُرَ شعراؤهم، وفاق النَّاسَ خطباؤهم؛ بعثه اللهُ - سبحانه وتعالى- فتحدَّاهم بما كانوا لا يَشكُّون أنَّهم يَقدِرون على أكثرَ منه، فلم يَزَلْ يقرِّعهم بعَجْزِهم، وينتقصهم على نَقْصهم، حتَّى تَبيَّن ذلك لضُعفائهم وعَوَامِّهم كما تَبيَّن لأقويائهم وخواصِّهم، وكان ذلك مِن

---

(١) ينظر: الفَرق بين الفِرق (ص: ١٥١)، والمِلل والنِّحل (١/٦٩).

(٢) هو: أبو عثمان، عَمْرُو بنُ بَحْرِ بنِ مَحْبُوْبٍ الْجَاحِظُ البَصْرِيُّ، المعتزليُّ، إمامُ الأدب، وتلميذُ النَّظَّام، ورئيسُ الفرقة الجاحظية مِن المعتزلة، وصاحبُ المصنَّفات في الفنون. قتلتْه مُجلَّداتٌ من الكتب وقعتْ عليه عام ٢٥٥هـ. ينظر: تاريخ بغداد (١٤/١٢٤)، وإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (٥/٢١٠١)، وسِير أعلام النُّبلاء (٩/٤١٣).

(٣) الحيوان (٤/٣٠٥).

(٤) المصدر السَّابق (٦/٤٥٥).

أعجب ما آتاه اللهُ نبيًّا قَطُّ، مع سائر ما جاء به مِن الآيات ومِن ضُروبِ البُرهانات"[1].

وقال أيضًا: "وفي كتابنا المنزَّل الذي يدلُّنا على أنَّه صِدقٌ نَظْمُه البديعُ الذي لا يَقدِر على مثْله العِبادُ، مع ما سِوَى ذلك مِن الدَّلائل التي جاء بها مَن جاء به"[2].

ويقول في بيان سبب تأليفه بعضَ الرسائل: "فكتبتُ لك كتابًا أَجهدتُ فيه نفْسي، وبَلَغتُ منه أقصى ما يمكن مِثْلي في الاحتجاجِ للقرآن، والرَّدِّ على كلِّ طَعَّان؛ فلَمْ أَدَعْ فيه مسألةً لرافضي، ولا لحديثيٍّ، ولا لحَشَويٍّ، ولا لكافرٍ مُبادٍ، ولا لمنافقٍ مقموعٍ، ولا لأصحابِ النَّظَّام ولمَن نَجَمَ بعد النَّظَّام؛ ممَّن يزعُم أنَّ القرآنَ خُلِق وليس تأليفُه بحُجَّة، وأنه تنزيلٌ وليس ببرهانٍ ولا دلالةٍ"[3].

وخُلاصةُ رأي الجاحظ: أنَّه يجمع بين القول بالصَّرفة وبين إعجاز القرآن في نَظْمه وبلاغته، وهو في ظاهره جمعٌ بين النَّقيضَين جعل بعضَ أهل العلم ينُسبه إلى الاضطراب[4]، ونفى عنه بعضهم القولَ بالصَّرفة[1]، وذهب فريقٌ ثالث ممَّن له

---

(1) الرسائل (٣/٢٧٩).

(2) الحيوان (٤/٣٠٥).

(3) الرسائل (٣/٢٨٧).

(4) يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعيُّ: "أمَّا الجاحظُ فإنَّ رأيَه في الإعجاز كرأي أهل العربية؛ وهو أنَّ القرآنَ في الدَّرجة العُليا من البلاغة التي لم يُعهَدْ مِثلُها، وله في ذلك أقوالٌ نشير إلى بعضها في موضعه، غير أنَّ الرجلَ كثيرُ الاضطراب؛ فإنَّ هؤلاء المتكلِّمين كأنَّما كانوا مِن عصرهم في مُنْخُل؛ ولذلك لم يَسْلَمْ هو أيضًا من القول بالصَّرفة، وإنْ كان قد أخفاها وأومأ إليها عن عُرُض؛ فقد سرد في موضعٍ من كتاب (الحيوان) طائفةً من أنواع العَجْز، وردَّها في العِلَّة إلى أنَّ الله صرف أوهامَ النَّاس عنها، ورفع ذلك القصدَ مِن صدورهم". إعجاز القرآن والبلاغة النَّبوية (ص: ١٠٢).

ويقول الدكتور عبدُ الكريم الخطيب: "ولا شكَّ أنَّ هذهِ من إحدى مُغالطات الجاحظ وخِلابته بما أُوتِيَ من قُوَّة الحُجَّة وسَطْوة البيان". الإعجاز في دراسات السَّابقين (ص:٣٦٩).

إلْمامٌ بكلام الجاحظ إلى إنصافه والانتصار له في هذا الباب ببيان الفرق بين صَرْفة النَّظَّام وصَرْفة الجاحظ، ومن هؤلاء الشَّيخ محمد أبو موسى حيث يقول: والصَّرْفُ هنا مُباينٌ للصَّرْفة التي ذكرها النَّظَّامُ وأنكرها الجاحظُ مُبايَنةً لا تلتبس؛ فلَوْلا الصَّرفُ عند النَّظَّام لجاؤوا بمثله، أمَّا صَرفةُ الجاحظ هذه فلَوْلاها لطمعوا فيه، ولو طمع فيه بعضُهم وتكلَّفه فجاء بأمرٍ فيه أدنى شبهةٍ لعظُمت القصَّةُ على الأعراب وأشباه الأعراب والنِّساء إلى آخره، ومراجعةُ هذا الكلام تفيد أنَّ قُصارى ما يأتي به المتكلِّفُ كلامٌ فيه أدنى شُبهة، ثمَّ إنَّ أدنى شبهةٍ هذه لا تكون عند أهل المعرفة وإنَّما عند الأعراب وأشباههم مِن ضِعاف الإيمان، وعند النِّساء وأشباههنَّ مِن ضِعاف التَّحيزة، وهذا أمرٌ يفتح باب اللَّجاجة التي تَعمل فيها العصبيَّةُ عملَها الذي عملتْه مع أصحاب مُسيلمةَ مع قطعِهم بكذبِه وفساد كلامه، والشُّبهةُ – فضلًا عن أدناها– في هذا الأمر لا يُستقلُّ قليلُها، ولا يُتهاون باليسير منها كما يقول العلماء. فالصَّرفُ هنا لا يجوز أن نتحمَّلَه على معنى أنَّه لولاه لجاؤوا بمِثله، وأنَّه وجهُ إعجاز القرآن، وحجَّةُ النُّبوَّة، والذي عليه الأمرُ في الإلْزام على حد ما هو عند النَّظَّام فيما فصَّلْنا، وليس في كلام الجاحظ ما يدلُّ على ذلك ، بلْ ولا ما يوهم به، وإنَّما هو قاطعٌ في أنَّ الصَّرفُ هنا أَغلَق بابَ اللَّجاجة بالباطل المتعلِّق «بأدنى شُبهة»، ثم هي أدنى شبهةٍ لا مَوضِعَ لها في قلب ذي لُبٍّ، وإنَّما يتعلَّق بها مَن لا حاجزَ له مِن تمكُّن الدِّين كالأعراب، ومَن لا تدبُّرَ له كالنِّساء. هكذا قال الجاحظ، وقد كرَّرنا ذلك لتأكيده، وهذا الذي أقوله لا يخامرني شكٌّ فيه، بل إنِّي لَأعجبُ مِن أهل العلم كيف أغفلوه مع وضوحه وتميُّزه"[٢].

([١]) يقول الدكتور محمد دِرَاز: "القولُ بالصَّرفة الذي اشتهر عن النظَّام من المعتزلة، وهو وإن كان اعترافًا في الجُملة بصحَّة الإعجاز إلَّا أنَّه لا يقول به إلَّا أعجميٌّ أو شَبَهُه ممَّن لم يَذُق للبلاغة طعمًا؛ ولذلك لم يتابعْه عليه تلميذُه الجاحظُ ولا أحدٌ من علماء العربية، وهو يُعَدُّ خِلافَ ما عرفه العربُ من أنفُسهم". النبأ العظيم (ص: ١١٥).

(٢) الإعجاز البلاغي (ص. ٣٦٣ – ٣٦٤).

وممَّن أيَّده في هذا التفصيل والبيان الأستاذ الدكتور محمود توفيق محمد سعد، رئيس قسم البلاغة والنقد في جامعة الأزهر الشَّريف بشبين الكوم؛ **إذ نقل قولَ شيخه الأستاذ الدكتور محمد محمد أبي موسى مستدلًّا به ومستشهِدًا له، قائلًا:** "الصَّرْفةُ التي قال بها "الجاحظ" لا تتعاند مع مذهبه في إعجاز القرآن الكريم بنَظْمه وتأليفه؛ لأنَّ مناطَ هذا غيرُ مناط ذاك فافترقا، وقد هدانا إلى ذلك شيخُنا أبو موسى أعزَّه الله"[١].

ثمَّ استطرد بعد ذلك في بيان المسألة وكشف ما قد يشكُل عنها بقوله: "وقد يَطعَن طاعنٌ في مقالة "الجاحظ" هذه بأنَّه يُنكر ما تواردت الأخبارُ بوقوعه؛ هو ينكِر أن يكون قد وقع طمعٌ مِن أحدٍ في معارضة القرآن الكريم، والواقعُ يقرِّر أنَّ مِن الناس مَن طمع، وأنَّ مسيلمةَ قد رُوي عنه أنَّه تَعاطى شيئًا مِن المعارَضة، فكيف تتحقَّق هذه الصَّرفةُ بمعناها عند "الجاحظ"؟ الحقُّ أنَّ "الجاحظ" لم ينكر ما رُوي مِن أمر "مسيلمة" بل عَرَض له بما يدلُّ على أنَّه لا ينكر وجودَه، غيرَ أنَّ "الجاحظ" كما سمعتَ منه لم يجعل ما فعل مسيلمةُ وابنُ النَّواحة مِن المعارَضة بالباطل على القرآن الكريم، بل جعل هذا لا يعدُو أن يكون عُدوانًا وسلبًا وأخذًا لبعضه، وهذا ليس مِن المُعارَضة في شيء، السَّرقةُ والسَّلب مع تغيير بعض الكلمات ليس مُعارَضةً؛ فالمُعارَضةُ شيءٌ غيرُ هذا؛ ومن ثمَّ لا يكون ما فعله "مسيلمةُ" مِن المعارضة في شيء، وهذا مِن لَقانة "الجاحظ" وفِراسته البيانية وعِرفانه البالغ بأصول المعارضةَ، وكأنّي بـ "الخطَّابي" مِن بعْده قد اهتدى بتفريق "الجاحظ" بين المُعارَضة "وما فعل" مسيلمة "فيقول عنه: "...خالٍ مِن أوصاف المعارَضات وشروطها، وإنَّما هو استراقٌ واقتطاع من عُرض كلام القرآن واحتذاءٌ لبعض أمثلة نظومه، وكَلَّا لن يبلغوا شأوَه أو يصيبوا في شيءٍ من ذلك حَذْوَه، وسبيلُ من عارَض صاحبه في خُطبةٍ أو شعر أنْ ينشئ له كلامًا جديدًا ويُحدِث له معنى

(١) إعجاز القرآن الكريم بالصَّرفة _ دراسة ناقدة (ص: ٣٢).

بديعًا؛ فيجاريه في لفظه ويباريه في معناه ليوازنَ بين الكلامَين؛ فيُحكمَ بالفَلْج لمَن أبرَّ [أي عفَّى وطغى] منهما على صاحبه، وليس بأنْ يتحيَّفَ مِن أطراف كلام خَصْمه فينسف منه ثُمّ يبدِّل كلمةً مكان كلمة، فيصل بعضَه ببعض وَصْلَ ترقيعٍ وتلفيقٍ، ثُمَّ يزعُم أنَّه قد واقَفه موقفَ المعارِضين"[١].

وهذا هو الرَّأيُ الأصوب والأظهر والألصق بكلام الجاحظ؛ لِقيامِ الدَّليل عليه مِن كتاباته، وتصريحِه بذلك في غيرِ مَوضِع، وتواتُرِ كتاباته عن قضيَّة إعجاز القرآن البلاغي والدِّفاع عنه، ومَن نسب إليه القولَ بصَرْفة النَّظَّام فيحتاج إلى إثبات قَوله بالدَّليل البيِّن. والله أعلم.

٤- الرُّمَّاني[٢]:

يرى الرُّمَّانيُّ أنَّ إعجاز القرآن في سَبعة أوجُه؛ هي: تركُ المعارضة مع توفُّر الدَّواعي وشِدَّة الحاجة، والتَّحدِّي للكافَّة، والصَّرْفةُ، والبلاغةُ، والأخبارُ الصَّادقة عن الأمور المستقبلة، ونقضُ العادة، وقياسُه بكلِّ مُعجزة[٣].

يقول الرُّمَّاني في مَعرِض بيان الإعجاز بالصَّرفة: "أمَّا الصَّرفةُ فهي صرفُ الهِمَم عن المعارَضة، وعلى ذلك كان يَعتمد بعضُ أهل العلم في أنَّ القرآن مُعجِزٌ مِن جهة صَرفِ الهِمَم عن المعارضة، وذلك خارجٌ عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلَّتْ على النُّبوَّة، وهذا عندنا أحدُ وجوه الإعجاز التي يَظهَر منها للعقول"[٤].

ويقول في مَعرِض إثباته إعجازَ القرآن البلاغيَّ: "فأمَّا البلاغةُ فهي على ثلاث طبقات؛ منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما

---

(١) بيان إعجاز القرآن (ص:٧٥- ٨٥).

(٢) هو: أبو الحسَن، عَليُّ بن عِيسَى بن عَليٍّ الرُّمَّاني. كان من أهل المعرفة، مفتيًا في علومٍ كثيرة من الفقه والقرآن، والنَّحو واللُّغة، والكلام على مذهب المعتزلة، وله تفسيرُ القرآن الكريم. توفي عام ٣٨٤هـ. ينظر: تاريخ بغداد (٤٦٢/١٣)، وإنباه الرُّواة على أنباه النُّحاة (٢٩٤/٢).

(٣) ينظر: النُّكت في إعجاز القرآن (ص٧٥).

(٤) المصدر السابق (ص١١٠).

هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة، فما كان في أعلاها طبقةً فهو مُعجِز وهو بلاغةُ القرآن، وما كان منها دون ذلك فهو ممكِنٌ كبلاغة البُلَغاء من النَّاس"[1].

وخلاصةُ رأي الرُّمَّانيِّ: أنَّ إعجاز القرآن في عِدَّة وجوه؛ منها: الصَّرفةُ والبلاغةُ، وهو يجمع بينها في إعجاز القرآن كما جمع بينها الجاحظُ، غيرَ أنَّ الجاحظ لم يصرِّح بالجمع كما صرَّح الرُّمَّانيُّ.

ثانيًا– أبرز القائلين بالصَّرفة من الأشاعرة:

١– أبو الحَسَن الأشعري[2]:

هو مؤسِّسُ المذهب الأشعري، وقد نَسَب إليه بعضُ أهل العلم القولَ بالصَّرفة، فقالوا: "وقد اختلف أئمَّةُ أهل السُّنَّة في وجْه عَجْزهم عنه؛ فأكثرُهم يقول: إنَّه ممَّا جمع في قُوَّةِ جزالته، ونَصاعةِ ألْفاظه، وحُسنِ نَظْمه، وإيجازِه، وبَديعِ تأليفه، وأسلوبِه، لا يَصِحُّ أنْ يكونَ في مقدور البشَر، وأنَّه من باب الخوارق الممتنِعة عن إقدار الخَلْق عليها؛ كإحياءِ الموتى، وقلبِ العصا، وتسبيحِ الحصى، **وذهب الشَّيخُ أبو الحسن** إلى أنه ممَّا يمكِن أن يدخُلَ مثْلُه تحت مقدور البَشَر ويُقدِرَهم اللهُ عليه، ولكنَّه لم يكن هذا ولا يكون؛ فمَنَعَهم اللهُ هذا وعَجَّزهم عنه، وقال به جماعةٌ من أصحابه"[3].

وخُلاصةُ رأي أبي الحَسَن الأشعري: إنكارُ إعجاز القرآن وبلاغته، إضافةً إلى كونه داخلًا في مقدور البَشَر لَوْلا وجوُد عائقٍ صرفهم عنه، وهو موافِقٌ لقَول

---

(1) المصدر السابق (ص٧٥).

(2) هو: أبو الحسَن، عليُّ بن إسماعيل بن إسحاق الأشعري، من نَسْل الصحابي أبي موسى الأشعري. مؤسِّسُ مذهب الأشاعرة، وكان من الأئمَّة المتكلِّمين المجتهدين، وتلقَّى مذهبَ المعتزلة وتقدَّم فيهم، ثمَّ رجع وجاهَر بخلافهم. توفي سنة ٣٢٤هـ. ينظر: وفيات الأعيان (٢٨٤/٣)، وطبقات الشَّافعية الكبرى (٣٤٧/٣)، والأعلام، للزِّركلي (٢٦٣/٤).

(3) ينظر: الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى (٥١٥/١)، ولوامع الأنوار البهية (١٧٥/١).

النظَّام ومُطابقٌ له، إلَّا أنَّني أميلُ إلى رأي طائفةٍ من الباحثين ذكروا احتمالَ وقوع هذا القول منه حين كان على مذهب الاعتزال؛ فقد قضى عُمرًا وهو متمذهِبٌ به، ثم رجع عن القَول بالصَّرفة بعد ذلك مع جُملةٍ مِن أراء المعتزلة ومعتقداتهم التي رجع عنها؛ لا سيَّما أنَّه لم يشتهر عنه[١]. والله أعلم.

٢- أبو إسحاق الإسفَراييني[٢]:

نقل القولَ بالصَّرفة عنه بعضُ المنتسبين للمذهب؛ فقد جاء في (**شرح المواقف**): "وقيل: إعجازُه بالصَّرفة على معنى أنَّ العربَ كانت قادرةً على كلامٍ مِثْلِ القرآن قبل البعثة لكنَّ اللهَ صرفهم عن مُعارضته. واختُلف في كيفية الصَّرف؛ فقال الأستاذ أبو إسحاق مِنَّا والنَّظَّامُ مِن المعتزلة: صرفهم اللهُ عنها مع قدرتهم عليها؛ وذلك بأنْ صرف دَواعيَهم إليها مع كونهم مجبولين عليها؛ خصوصًا عند توفُّر الأسباب الدَّاعية في حقِّهم؛ كالتقريعِ بالعَجْز، والاستنزالِ عن الرِّئاسات، والتكليفِ بالانقياد"[٣].

وخلاصةُ رأيه على ما نُقل عنه: إنكارُ إعجازِ القرآن وبلاغته، وإثباتُ قدرة البَشَر على محاكاته والإتيان بمثْله لَوْلا صارِفٌ صرف هِممَهم عنه، وهو موافقٌ لقَول النَّظَّام بل مطابقٌ له.

٣- البَيْهَقي[٤]:

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن بين الإمام السيوطي والعلماء (ص: ١٠٤).

(٢) هو: أبو المظفَّر، شَهْفُورُ بن طَاهِر بن مُحَمَّد الإسفَراييني، العلَّامةُ، المفتي، الشَّافعي، الأصولي الفَقِيه الْمُفَسّر. من أئمَّة المتكلِّمين الأشاعرة، ووزيرُ نِظَامِ المُلْك بِطُوس. توفي سنة ٤٧١هـ. ينظر: تبيين كذب المفتري فيما نُسب إلى الأشعري (ص: ٢٧٦)، وسِير أعلام النُّبلاء (٤٠١/١٨)، وطبقات الشَّافعية الكبرى (١١/٥).

(٣) شرح المواقف مع حاشية السيالكوتي وحسن الحلبي (٤٢٠/٢).

(٤) هو: أبو بكرٍ، أحمدُ بن الحسين بن علي البَيْهَقيُّ، الفقيه، الشَّافعي، الحافظ الأصولي الكبير المشهور. كان واحدَ زمانه، وفَرْدَ أقرانه، وحافظَ أوانه، ومن كبار أصحاب أبي عبد الله الحاكم.

ذهب البيهقيُّ إلى القَول بالصَّرفة وصرَّح بها في كتبه قائلًا: "وأمَّا الصَّرفةُ والتَّعجيز - مع توهُّم القُدرة منهم على الإتيان بمِثْله- فإنَّما يُعلَم ذلك بعدم المعارضة مع توفُّر الدَّواعي وشِدَّة الحاجة إليه، وذلك ما لا يجوز أنْ يَشُكَّ فيه عاقلٌ مِن أنَّهم لو كانوا قادرين عليه لَبادَرُوا إليه مع حِرصهم على إبطالِ دعوته ونقضِ كلمته، ولَمَا خَرَجُوا في أمرِه إلى نَصْبِ القتال، والتَّغريرِ بالأنفُس، وإتلافِ الأموال، ومُفارَقةِ الأهل والأوطان، ولَكانَ ذلك أَيْسَرَ عليهم من مُباشَرة الخطوب، ومُقاساةِ هذه الشَّدائد والكروب، فلمَّا لم يفعلوه دلَّ على عَجْزهم عن ذلك، وسبيلُ هذا سبيلُ رجلٍ عاقل اشتدَّ به العطشُ وبحضرته ماءٌ، فجعل يَتلوَّى من شِدَّة الظَّمأ ولا يَشرَبُ الماءَ، فلا يَشُكُّ شاكٌّ أنَّه عاجزٌ عن شُربه أو ممنوعٌ لسببٍ يَعُوقه عنه، وأنَّه لم يترُكْه اختيارًا مع توفُّر الدَّواعي له، وشِدَّةِ الحاجة منه إليه، وهذا بيِّنٌ. والحمدُ لله"[1].

وخُلاصةُ رأيه: أنَّه يرى أنَّ الوجهَ في إعجاز القرآن هو صرفُ الهِمَم عنه، إلَّا أنَّه لم يُؤثَرْ عنه إنكارُ بلاغة القرآن، أو القولُ بأنَّه داخلٌ في مقدور البَشَر.

٤- إمام الحرمَين الجُوَيْني[2]:

قال في مَعرِض بيانه لأوجُه الإعجاز في القرآن: "فالوجهُ أنْ لا يُدَّعَى بلوغُ جَزالةِ القرآن مَبْلَغَ خرقِ العادة، بل نقول: تحدَّى الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم فصحاءَ العرب بأنْ

تُوفي سنة ٤٥٨هـ. ينظر: وفيات الأعيان (٧٥/١)، وتاريخ الإسلام (٩٥/١٠)، وطبقات الشَّافعية الكبرى (٨/٤).

(١) الاعتقاد (ص: ٢٦٦).

(٢) هو: إمامُ الحرمين، أبو المَعَالي، عبدُ المَلِك بن عَبْد الله بن يُوسفَ، الجُوَيْنيُّ، الفقيهُ الشَّافعي، أحدُ أبرز علماء الدِّين عامَّةً والأشاعرةِ خاصَّةً. قيل إنه قال في مرض موته: اشهَدُوا عليَّ أني قد رجعتُ عن كلِّ مقالةٍ تخالف السَّلَفَ، وأنِّي أموتُ على ما تموت عليه عجائزُ نَيْسابُور. توفي سنة ٤٧٨هـ. ينظر: وفيات الأعيان (١٦٧/٣)، وطبقات الشَّافعيِّين (ص: ٤٦٦)، والأعلام، للزِّركلي (١٦٠/٤).

يأتُوا بمثْلِ القرآن؛ كما أَنبَأ عنه قولُه تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [سورة الإسراء:٨٨]، وتَمادَى على تحدِّيه نَيِّفًا وعشرين سنةً، والقرآنُ بلُغتهم، وليس بعيدًا مِن مبلغ اقتدارهم في جزالته وأسلوبه، فلم يَقدِروا على الإتيان بمثْله، ثم استأثر اللهُ - تبارك وتعالى - برسوله ﷺ، وكَرَّتِ الدُّهورُ، ومَرَّت العصورُ، وأقطارُ الأرض تَطفَح بجميع الكفَّار ذوي الفِطَن النافذة، وتَشوُّفُهم أن يستمكنوا من مَطعَنٍ في الإسلام، وفي كلِّ قُطرٍ منهم طائفةٌ مشتغلون بالنَّظم والنَّثر على لُغة العرب؛ فقَصُرَتْ قدرُ الخَلْق عن المعارضة في أربعمائة وستِّين سنةً ونَيِّفٍ؛ فتبيَّن قطعًا أنَّ الخَلْق ممنوعون عن مِثل ما هُو مِن مقدورهم، وذلك أبلغُ عندنا مِن خَرْق العوائد بالأفعال البديعة في أنفُسها"[١].

وخُلاصة رأيه: أنَّ وجه الإعجاز في القرآن هو الصَّرَفةُ عنه مع قُدرتهم على الإتيان بمثْله، وأنَّ بلاغتَه وجزالته ليست خارقةً للعادة، بل هي في مقدور العرب ومتناولهم.

٥- الغزالي[٢]:

تَبنَّى الغزاليُّ القولَ بالصَّرفة بقوله: "فإنَّ انصرافهم - أي العربَ- عن المعارضة لم يكُن إلَّا بصرفٍ من الله تعالى، والصَّرفُ عن المقدور المعتاد مِن أعظم المعجِزات، فلو قال نبيٌّ: آيةُ صِدقي أنِّي في هذا اليوم أحرِّك أُصبعي ولا يَقدِرُ أحدٌ من البشَرِ على مُعارَضتي، فلم يعارِضْه أحدٌ في ذلك اليوم؛ ثبت صِدقُه، وكان فقدُ قدرتِهم على الحركة - مع سلامة الأعضاء- مِن أعظم المعجِزات، وإنْ

---

(١) العقيدة النظامية (ص: ٢٣٦).

(٢) هو: أبو حامدٍ، محمدُ بن محمد بن محمد الطُّوسي الغَزَالي. فقيهٌ، شافعي، متكلم، يلقَّب بزَين الدِّين وبحُجَّة الإسلام، صنَّف الكتبَ المفيدة في عدَّة فنون. تُوفي سنة ٥٠٥هـ. ينظر: وفيات الأعيان (٤/٢١٦)، وطبقات الشَّافعية الكبرى (٦/١٩١)، والأعلام، للزِّركلي (٧/٢٢).

فُرض وُجُودُ القدرة ففقدُ داعيتهم وصرفُهم عن المعارضة مِن أعظم المعجزات، مَهْما كانت حاجتُهم ماسَّةً إلى الدَّفع باستيلاء النَّبيِّ على رِقابهم وأموالهم، وذلك كلُّه معلومٌ على الضَّرورة"[1].

وخُلاصة رأيه: أنَّه يقول بمفهوم الصَّرفة النَّظَّامِّية، وأنَّها الوجهُ في إعجاز القرآن.

ثالثًا- أبرز القائلين بالصَّرفة من الشِّيعة:

١- الشَّريف المرتضى[2]:

هو من أبرز من قال بالصَّرفة من الشِّيعة وأشهرهم، إلَّا أنَّ الصَّرفةَ تختلف في منظوره عن الأقوال السَّابقة؛ إذْ يقول في مَعرِض ردِّه على من قال بأنَّ الصَّرفة كانت بصرفِ الهِمَم عن معارضته: "والصَّرفةُ على هذا إنَّما كانت بأنْ يَسلُب اللهُ - تعالى- كلَّ من رام المعارضةَ وفكَّر في تكلُّفها في الحالِ العلومَ التي يَتأتَّى معها؛ مثْلُ فصاحةِ القرآن وطريقتِه في النَّظم"[3].

ثمَّ يتابع بقوله: "وهذا الجوابُ لا يَصِحُّ الأمرُ فيه إلا بأنْ نَدُلَّ على أنَّ التحدِّي وقع بالفصاحة مع الطريقة في النَّظم، وعلى أنَّ القرآن مختصٌّ بطريقةٍ في النظم مفارقةٌ لسائر النُّظوم والكلام، وعلى أنَّ القومَ لو لم يُصرفوا - على الوجه الذي ذكرْناه- لَوقعتْ منهم المُعارَضةُ بما يساوي أو يقارب الوجهَ الذي ذكرْناه"[4].

---

(1) الاقتصاد في الاعتقاد (ص: ١١٣).

(2) هو: أبو طالبٍ، عَلِيُّ بنُ حُسَيْنِ بن مُوْسَى القرشي، المعروفُ بالشَّرِيْف المرتضى. كان إمامًا في علم الكلام، شيعيًّا رافضيًّا، له تصانيفُ على مذهب الشِّيعة. توفي عام ٤٣٦هـ. ينظر: وفيات الأعيان (٣/٣١٣)، وسِير أعلام النُّبلاء (١٧/٥٨٨)، والأعلام، للزِّركلي (٤/٢٧٨).

(3) الموضّح عن جهة إعجاز القرآن (ص:٣٥).

(4) المصدر السابق (ص:٣٦).

وخُلاصةُ رأيه: إنكارُ مفهوم الصَّرفة الذي قال به النَّظَّامُ، وتقريرُ القول بأنَّ الصَّرفة كانت بسلبِ العلوم والمعارف التي تمكِّن منِ معارَضة القرآن، ولَوْلا أنَّ الله سلب علومَهم ومعارفهم لَتمكَّنوا من معارضته.

٢- الخَفَاجيُّ[١]:

يقول: "وإذا عُدنا إلى التَّحقيق وجدْنا وجْهَ إعجاز القرآن صرْفَ العرب عن معارَضته بأنْ سُلِبوا العلومَ التي بها كانوا يتمكَّنون من المعارضة في وقتِ مَرامهم ذلك"[٢].

وخُلاصة رأيه: أنَّ وجه الإعجاز في القرآن هو أنَّ الله سلب العربَ العلومَ التي تمكِّنهم من معارضة القرآن، وهو موافقٌ لقول الشَّريف المرتضى.

رابعًا- أبرز القائلين بالصَّرفة من أهل السُّنَّة والجماعة:

١- ابن حزم[٣]:

هو ممَّن ذهب إلى القول بالصَّرفة من أهل السُّنَّة والجماعة حيث يقول: "لم يَقُلْ أحدٌ من أهل الإسلام أنَّ كلامَ غيرِ الله - تعالى- مُعجِزٌ، لكنْ لمَّا قاله اللهُ - تعالى- وجعَله كلامًا له أصاره مُعجِزًا ومنع من مُماثَلته، وهذا برهانٌ كافٍ لا يحتاج إلى غيره، والحمدُ لله"[٤].

---

(١) هو: أبو مُحَمَّد، عَبْد اللَّه بن مُحَمَّد بن سَعِيد بن سِنان الحلبيُّ الخَفَاجي، الشَّاعر الأديب. كان يرى رأْي الشِّيعة الامامية. تُوفي عام ٤٦٦هـ. ينظر: فوات الوفيات (٢/٢٢٠)، والأعلام، للزِّركلي (٤/١٢٢).

(٢) سرُّ الفصاحة (ص١٠٠).

(٣) هو: أبو محمد، عليُّ بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي. كان حافظًا، عالمًا بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنَّة، وانتقل إلى مذهب أهل الظَّاهر بعد أن كان شافعيَّ المذهب. توفي سنة ٤٥٦هـ. ينظر: وفيات الأعيان (٣/٣٢٥)، وسِير أعلام النُّبلاء (١٨/١٨٤)، والأعلام، للزِّركلي (٤/٢٥٤).

(٤) الفِصل في المِلل والأهواء والنِّحل (٣/١٢).

وخُلاصة رأيِ ابن حزم، فيما يظهر: أنَّه يرى إعجازَ القرآن في وجهَين؛ أوَّلُهما: نظمُه وبلاغتُه وهو ما قصده في بداية كلامه، وثانيهما: الصَّرفة وهو ما قصده بقوله: "ومَنَعَ من مُماثَلته"؛ فهو يجمع بينهما في إعجاز القرآن كما جمع بينهما الجاحظُ وغيره.

٢- ابن القيّم[1]:

يقول في مَعرِض ذِكرِه لوجوه إعجاز القرآن التي ذكرها أهلُ العلم: "وكلُّ واحد مِن هذه الأقوال يَحتمل أن يكون معجزةً إذا تحدَّى بها الرسولُ ﷺ، وعَجَزوا عن الإتيان بمثل ما تحدَّى به، وسُمِّيَ هذا القولُ مُعجزةً لتعجيزه مَن رامَ معارضتَه والإتيانَ بمثْله".

ثمَّ استطرد قائلًا: "والذي يَتعيَّن اعتقادُه أنَّ القرآن - بجملةِ ألْفاظه ومعانيه وبعضِه وكلِّه - مُعجزةٌ؛ إمَّا لسَلْب قدرتهم عن الإتيان بمثْله، وإمَّا لصَرفِهم عنه؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ تَحدَّى به وعرض عليهم الإتيانَ بمثْله فعجَزوا عن ذلك، ولأنَّ الله - سبحانه- أخبر أنهم ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[2]"[3].

وخُلاصة رأي ابن القيّم، فيما يظهر لي والعلمُ عند الله: التَّصريحُ بأنَّ القرآن يحتمل أن يكون مُعجِزًا بالصَّرفة مع التَّأكيد على إعجاز النَّظْم في ذاته، وإنّي لَأتعجَّب مِن قوله في هذا الباب مع عِظَم قَدْره ورُسوخ قَدَمِه في العلم، وما ذلك إلَّا لنزداد يقينًا بأنَّ البشَر - مَهْما بلغوا من المنازل- لم يَجعل اللهُ سبحانه لهم الكمالَ. واللهُ المستعان.

---

(١) هو: أبو عبد الله، شمسُ الدين، محمدُ بن أبي بكر بن أيُّوب الدمشقي، المعروف بابن قيّم الجَوْزية. كان حنبليَّ المذهب، أصوليًّا مفسّرًا نحويًّا، واسعَ العلم، عارفًا بالخلاف ومذاهب السَّلف، وتتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية. تُوفي سنة ٧٥١هـ. ينظر: الدرر الكامنة (١٣٧/٥)، وطبقات المفسّرين، للدَّاودي (٩٣/٢).

(٢) سورة الإسراء، آية ٨٨.

(٣) الفوائد المشوِّق إلى علوم القرآن وعلم البيان.

المطلب الثاني: أدلَّة القائلين بالصَّرفة:

استدلَّ القائلون بالصَّرفة بعِدَّةٍ أدلَّةٍ عقليةٍ متهافتةٍ لا يَصِحُّ أن تُسمَّى دليلًا لِشِدَّة تهالُكها، ويمكِن إجمالُها فيما يلي:

الدَّليل الأول: أنَّ القرآن الكريم مؤتلِفٌ من حروف العرب التي يَنسِجون منها كلامَهم؛ فالقرآنُ هو هذه الحروفُ قد جُعل بعضُها إلى جنب بعض؛ فلا يمتنع على أحدٍ من أهل اللُّغة أن يأتيِ بالحرف بعد الحرف منها؛ وإذا كان الإنسانُ قادرًا على أن يقول: "الحمدُ" فهو قادرٌ أيضًا على أن يقول: "لله"، ثم كذلك القولُ في كلِّ حرف، وإن كان ذلك كذلك فالجميعُ مقدورٌ عليه لولا أنَّ الله – تعالى– أَعجَزهم عنه[١].

وهذا الدليلُ مِن التَّهافُتِ والتهالُك بمنْزلة، ولا يَستسيغُه العقلُ ولا يرتضيه، وقد رَدَّ عليه الباقِلَّانيُّ بما يزيد تهالُكَه وضوحًا قائلًا: "فالجوابُ: أنْ لو صحَّ ذلك لَصحَّ لكلِّ مَن أمكنه نظمُ رُبعِ بيت أو مِصراعٍ من بيت – أن يَنظِم القصائدَ ويقولَ الأشعار، وصحَّ لكلِّ ناطقٍ قد يتَّفق في كلامه الكلمةُ البديعة نظمُ الخُطَب البليغة والرَّسائل العجيبة! ومعلومٌ أنَّ ذلك غيرُ سائغٍ ولا ممْكنٍ"[٢].

الدَّليل الثاني: أنَّ العربَ كانوا على درجةٍ عالية من البلاغة والفصاحة، وهُم أهلُ هذه الصِّناعة وأربابُ هذا العلم المتمكِّنون، فلمَّا كانوا كذلك عُلم أنَّهم لم يمتنعوا عن معارَضة القرآن إلَّا لِصارفٍ أَعاقَهم عنه؛ لا سيَّما مع توفُّر الدَّواعي؛ كالتَّحدِّي والتَّقريع، والرَّمي بالعَجْز[٣]. وفي السِّياق ذاته يقول الخفاجيُّ الرَّافضي في مَعرِض ردِّه على الرُّمَّانيِّ الذي جعل القرآنَ في أعلى طبقات البلاغة الخارجة عن مقدور البشَر: "أمَّا قولُه: إنَّ القرآن مِن المتلائم في الطَّبقة العليا وغيرُه في الطَّبقة الوسطى – وهو يعنى بذلك جميعَ كلام العرب– فليس الأمرُ على ذلك، ولا فرقَ بين القرآنِ

---

(١) ينظر: الموضح عن جهة إعجاز القرآن (ص:١٢).

(٢) إعجاز القرآن (ص٢٩).

(٣) ينظر: الفَرق بين الفِرق (ص: ١٢٨)، وسِرُّ الفصاحة (ص٢٢٥).

وبين فصيحِ الكلام المختار في هذه القضية، ومتى رجع الإنسانُ إلى نفْسه، وكان معه أدني معرفة بالتأليف المختار؛ وجد في كلام العرب ما يُضاهي القرآنَ في تأليفه"[١].

ويقول الجُّوينيُّ في تقرير ذلك: "وقد أكثر النَّاسُ في وجْه إعجاز القرآن، وتَقطَّعوا فيه أياديَ سبأ، وصار مُعظمُ النَّاس إلى أنَّ القرآن تَميَّز على صنوف الكلام بمَزيَّةِ البلاغة والجزالة، خارجٌ عن المعتاد في ذلك، ثمَّ زعم زاعمون أنَّ إعجازَه في شرَف جزالته، وذهب آخَرون إلى أنَّ إعجازه في الجزالةِ الفائقة، وأسلوبِه الخارج عن أساليب النَّظم والنَّثر والخُطَب والأراجيز"، **إلى أن قال:** "ومَن رامَ أنْ يُثبِتَ إعجازَ القرآن بأنَّه في جزالته خارقٌ للعادات، مُجاوزٌ لفصاحة اللُّدُدِ البُلَغاء، واللُّسُنِ الفصحاء؛ فقد حادَ عن مَدرَك الحقِّ؛ فإنَّ مَن تأمَّل كلامَ العرب – في نَظمِها ونَثرِها– لم يتحقَّق عنده انتهاءُ جزالة القرآن إلى حدِّ الخروج عن العادة في الزِّيادة على كلام الفصحاء، ومَن تكلَّف إثباتَ ذلك فقد تَكلَّف شَطَطًا، وظنَّ غَلَطًا، وتَمَشْدقَ بالكلام الطَّويل من غير تحصيل"[٢].

<u>وهذا الدَّليلُ باطلٌ بالكلِّية، ولم يرتضهْ عقلاءُ أهل العلم ولا المحقِّقون من جميع المذاهب، وسيأتي بيانُ بُطلانه على وجه التَّفصيل في المبحث القادم، إن شاء الله.</u>



(١) سِرُّ الفصاحة (ص٩٩).

(٢) العقيدة النظامية (ص: ٢٣٣).

المبحث الثالث

إبطال القول بالصَّرفة

قسَّمتُ هذا المبحَث إلى شَطرَين؛ وذلك لنقضِ كلِّ مفهوم من مفاهيم الصَّرفة على حِدَة؛ فأستعرض في الشَّطرِ الأوَّل مجْملَ الأدلَّة التي تَنقُض القولَ بالصَّرفة الذي ذهب إليه النَّظَّامُ وشايَعه عليه آخَرون، وفي الشَّطرِ الثاني مُجْملَ الأدلَّة التي تنقُض القولَ بالصَّرفة الذي ذهب إليه الشَّريفُ المرتضى وشايَعه عليه قِلَّةٌ.

أوَّلًا- أدلَّة نقض القول: "بأنَّ الله صرف الهِمَم عن المعارَضة":

١- نقل لنا التَّاريخُ محاولاتِ نَزْرٍ يسير من العرب مُعارضةَ القرآن، إلَّا أنَّها كانت ركيكةً، لا ترقى لمستوى التَّحدِّي والمعارَضة، ولا يخفى على ذي لُبٍّ انحطاطُها عن مستوى القرآن وجزالة تراكيبه وعذوبة ألْفاظه، وهو ما جعل الإحباطَ يتمكَّن من نُفوسِهم. يقول القاضي عبدُ الجبَّار في مَعرِض بيانه سببَ عُزوف السَّواد الأعظم منهم عن معارَضة القرآن: "قد بيَّنَّا أنَّ فيهم مَن جاء بمعارضةٍ ركيكة، ومن لم يأتِ بها فلأنَّه عَلِم من حالها ما وصفناه، أو كان في حُكمِ العارف، أو تابعًا للعارف؛ فلذلك اتَّفَقوا على العُدول عن المعارضة، وهذا بيِّنٌ مِن حالِ الجَمْع العظيم؛ لأنَّهم ينظُرون إلى المتقدِّم منهم في المرتبة، ويقع مِن جهتهم التَّأسِّي، فلمَّا رأى أتباعُهم الأكابرَ قد ضاق ذَرْعُهم بالقرآن، وعَدَلُوا عن المعارضة إلى الأمور الشَّاقَّة؛ تَبِعُوهم في هذه الطَّريقة لِعِلمهم بأنَّهم عن ذلك أشدُّ عَجْزًا؛ فلذلك استمرَّتْ أحوالُهم على هذا الوجه، لا للصَّرْفة التي ظنَّها السَّائلُ"(١).

ويقول **شيخ الإسلام ابن تيمية** في السِّياق ذاته: "فالنَّاسُ يَجِدُون دَواعيَهم إلى المعارَضة حاصلةً، لكنَّهم يُحِسُّون مِن أنفُسهم العجزَ عن المعارضة، ولو كانوا قادرين لَعارَضوه، وقد انتدب غيرُ واحد لمعارَضته، لكنْ جاء بكلامٍ فَضَحَ به نفْسَه، وظهر به تحقيقُ ما أخبر به القرآنُ من عجزِ الخَلْق عن الإتيان بمثْله؛ مثلَ قرآن

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل (٢٩٢/١٦).

مسيلمةَ الكذَّابِ؛ كقوله: (يا ضِفْدَعُ بنتَ ضِفْدَعَين، نِقّي كَمْ تَنِقّين، لا الماءَ تُكدِّرين، ولا الشَّارِبَ تمنعين، رأسُكِ في الماء، وذَنَبُكِ في الطِّين)، وكذلك أيضًا يَعرفون أنَّه لم يَختلف حالُ قُدرتهم قبل سماعه وبعد سماعه، فلا يَجِدُون أنفُسَهم عاجزين عمَّا كانوا قادرين عليه؛ كما وجد زكريَّا عَجْزَه عن الكلام بعد قُدرته عليه"(١).

فهذه المحاولاتُ تَدُلُّ على أنَّ العرب – الذين كان القرآنُ مؤتلِفًا من جِنس حروفهم التي يتكلَّمون بها – لم تصرَف هِمَمُهم عن المعارضة، ولو صُرفتْ هِمَمُ العرب عن المعارضة لنُقل لنا ذلك على ألْسِنتهم، ولَقالوا للنَّبي ﷺ: قد كان في مقدورنا لولا أنَّك سحرْتنا وسلبتَ هِمتَّنا وقُدرتنا، بل الواقعُ يَشهد بخلاف ذلك؛ فقد قالوا استهزاءً ومُكابَرةً: {قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ} [سورة الأنفال:٣١].، وقال مُسيلِمةُ: {سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ} [سورة الأنعام:٩٣]. يقول الباقِلَّاني: "ولكنَّهم لم يقولوا هُم ولا غيرُهم؛ لأنَّ تأليفَ القرآن البديعَ، ووصفَه الغريبَ، ونَظْمَه العجيبَ، قد أخذ عليهم منافذَ البيان كلَّها، وقطع أطماعَهم في معارضته، فظلُّوا مقموعين مدحورين ثلاثةَ وعشرين عامًا، يَتجرَّعون مرارةَ الإخفاق، ويَهطَعون لِقوارع التَّبكيت، ويُنغِضون رُؤوسَهم تحت مقارع التحدِّي والتعيير، مع أَنَفَتِهم وعِزَّتهم، واستكمالِ عُدَّتهم وكثرةِ خُطبائهم وشُعرائهم، وشُيوعِ البلاغة فيهم، والْتِهابِ قلوبهم بنار عَداوته، وتَرادُفِ الحوافز إلى مناهضته، وعِرفانهم أنَّ معارضته بسُورةٍ واحدة أو آياتٍ يسيرة أَنقَضُ لقوله، وأَفعلُ في إطفاء أمره، وأَنجَع – في تحطيمِ دعوته، وتفريقِ الناس عنه– مِن مُناجزتِه، ونَصبِهم الحربَ له، وإخطارِهم بأرواحهم وأموالهم، وخُروجِهم عن أوطانهم ودِيارهم"(٢).

٢– أنَّ القرآن فتح بابَ التحدِّي على مِصْراعَيه، ودعاهم إلى المعارضة، وأثار حَفيظتَهم، وسفَّه عقولَهم وعقولَ آبائهم، ونعتهم بالجمود والجهالة، ثم رماهم

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٥/٤٣٢).

(٢) إعجاز القرآن (ص: ٦).

بالعجز، وقد تواترت الأنباءُ وسجَّل التاريخُ أنَّ بواعث المعارضة قد وجدتْ سبيلَها إلى نُفُوسهم، ونالتْ من عزائمهم، فهَبُّوا هبَّةَ رجلٍ واحد في محاولة القضاء على دعوة القرآن، فلم يتركوا فجًّا إلا سلكوه، ولا بابًا إلا وَلَجُوه، فلمَّا عَجَزُوا عنه آذَوُا النبيَّ ﷺ وقاطَعوه، ورَمَوْه بالشِّعر والسِّحر والجنون والكِهانة، وتآمَرُوا على أن يُثْبِتوه أو يقتُلوه أو يُخرِجوه، فسبقتْهم عنايةُ الله وحفظهُ له[1]. فإنْ كان ذلك كذلك فأين التَّثبيطُ وسلبُ الهِمَم الذي يدَّعُونه؟! بل كان سبيلُهم اليأسَ والخُذلانَ في جميع المحاولات، فعَدَلُوا عن المعارضة باللِّسان إلى المعارضة بالسَّيف.

٣- إقرار العرب بأنه خارجٌ عن معهودهم، خارقٌ لعادتهم؛ فهذا الوليدُ بن المُغيرة - وغيرُه ممَّن كان قويَّ الشَّكيمة في العناد وشديدَ العداوة للإسلام - يُذعِن لِسماع القرآن مستعظِمًا بلاغته، متعجِّبًا من حُسن فصاحته، قائلًا بعد إذعانه: ((فواللهِ ما فيكم رجلٌ أعلمُ بالأشعار منِّي، ولا أعلمُ برَجَزٍ ولا بقصيدةٍ منِّي، ولا بأشعارِ الجِنِّ، واللهِ ما يُشبِه الذي يقول شيئًا من هذا، وواللهِ إنَّ لِقوله الذي يقول حلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوةً، وإنه لمُثمِرٌ أعلاه مُغْدِقٌ أسفلُه، وإنه لَيَعلُو وما يُعلَى، وإنه ليحطم ما تحْته))[2]، شاهدًا بأنه لا يمكن أن يكون إلا من عند الله.

٤- لو كان الإعجازُ في القرآن الكريم بالصَّرفة لَمَا أنزل اللهُ - سبحانه وتعالى - القرآنَ في أعلى درجات الفصاحة، وأخرجه في أسلوبٍ عجيب، وفصَّله على هذا النَّظم البديع، ولَكان نزولُه على النَّمط والأسلوب الرَّكيك المتهالك أبلغَ في الإعجاز، وفي سياق ذلك يقول الزَّمَخْشريُّ بعد بيان أوجُه الإعجاز في سورة الكوثر، وما حَوَتْه من أوجُهٍ بلاغية: "ودَعْ عنك حديثَ الصَّرفة ؛ فما الصَّرفةُ إلا

---

(1) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن (٤١٦/٢).

(2) الحديث صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة المدثر، برقم: (٣٨٧٢)، (٥٥٠/٢).

قال الحاكم: هذا حديثٌ صحيحُ الإسناد على شرط البخاري ولم يخرِّجاه، وأقره الذهبيُّ على ذلك.

صُفْرةٌ[١] من النَّظَّام، وفَهَّةٌ[٢] منه في الإسلام، ولقد رُدَّتْ على النَّظَّامِ صُفْرتُه كما رُدَّتْ عليه طَفْرتُه، ولو صحَّ ما قاله لَوجب – في حكمةِ الله البالغة، وحُجَّتِه الدامغة – أنْ يُنزِلَه على أَرَكِّ نَمَطٍ وأنزله، وأَفْسَلِ[٣] أسلوبٍ وأسفله، وأَعْراهُ من حُلَلِ البلاغة وحُلِّيِّها، وأخلاه من بَهيِّ جواهر العقول وثَرِيِّها، ثم يقال لِوُلاة أعلى الكلام طبقةً وأَمْتَنِه، ولأرباب آنَقِه[٤] طريقةً وأحسنِه: هاتُوا بما ينحُو نحوَه، وهَلُمُّوا بما يحذُو حَذْوَه، فيعترضهم الحَجْزُ، ويتبيَّن فيهم العَجْزُ، فيقال: قد استصرفهم اللهُ عن أَهْونِ ما كانوا فيه ماهرين، وأَيْسرِ ما كانوا عليه قادرين"[٥].

---

(١) الصُفْرة: يقال: «إنه لفي صُفْرة» للذي يعتريه الجنونُ؛ إذا كان في أيَّامٍ يزول فيها عقلُه؛ لأنهم كانوا يَمسَحُونه بالزَّعْفَران فيَصْفَرُّ، والصُّفرةُ من الألوان معروفةٌ. ينظر: لسان العرب (٤٦١/٤)؛ الصِّحاح تاج اللغة (٧١٤/٢).

(٢) الفَهَّة والفَهَاهَة والفَهْفَهَة: العِيُّ، والسَّقْطةُ والجَهْلَة ونحوُها، والفَهُّ الكَليل اللِّسان، العَيِيُّ عن حاجته، وفَهَّ عن الشَّيء يَفَهُّ فَهًّا نَسِيَه، ويقال: سفيهٌ فَهِيهٌ، وفي الحديث: «ما سمعتُ منك فَهَّةً في الإسلام قبْلَها». ينظر: لسان العرب (٥٢٥/١٣)؛ القاموس المحيط (١٢٥١/١)؛ الصحاح تاج اللغة (٢٢٤٥/٦).

(٣) الفَسْل: الرَّذْلُ النَّذْل الذي لا مُروءةَ له ولا جَلَدَ، والمفسولُ مثْلُه، والجمعُ أَفْسُلٌ وفُسُولٌ وفِسَالٌ وفُسْلٌ، والفِسْلُ الرجُلُ الأحمق، ويقال: أَفْسَلَ فلانٌ على فلانٍ متاعَه إذا أرذله، وأفسل عليه دَراهمَه إذا زيَّفها. ينظر: لسان العرب (٥١٩/١١)؛ القاموس المحيط (١٠٤١/١)؛ الصحاح تاج اللغة (١٧٩٠/٥).

(٤) آنَقِه: والأَنَقُ: الإعجابُ بالشيء ومحبَّتُه، تقول: أَنِقتُ به، وأنا آنَقُ به أَنَقًا، وأنا به أَنِقٌ: مُعْجَبٌ، وإنَّه لأنيقٌ مُؤَنَّق: لكلِّ شيء أعجبك حُسنُه، وأَنِقْتُ الشيءَ أحببْتُه، ورَوضةٌ أنيق أي مأنوقة محبوبة، والأَنَقُ حُسنُ المنظر وإعجابُه إيَّاك، والأَنَق: الفَرَحُ والسُّرور، وتَأَنَّق فيه عَمِلَه بالإتقان والحكمة. ينظر: لسان العرب (٩/١٠)؛ القاموس المحيط (٨٦٥/١)؛ والصحاح تاج اللغة (١٤٤٧/٤).

(٥) رسالة في إعجاز سورة الكوثر (ص: ٤٢).

ويقول الرَّازي في معرِض الرَّدِّ على القائلين بالصَّرفة: "ولو كان الوجْهُ في كونه مُعجِزًا هو الصَّرفَ لَكان دلالةُ الكلام الركِّيك النازل في الفصاحة على هذا المطلوب أَوْكَدَ من دلالة الكلام العالي في الفصاحة"(١).

٥- أنَّ هذا القول يُؤدِّي إلى الطَّعن في القرآن؛ ذلك أنه بِزوالِ زمن التحدِّي يزول إعجازُ القرآن، وفي ذلك خرقٌ لإجماع الأمَّة؛ فإنهم أجمعوا على بقاء مُعجِزةِ الرسول العظمى، ولا مُعجزةَ له باقيةً سِوَى القرآن، وخُلُوُّه من الإعجاز يُبطِل كونَه مُعجزةً(٢).

٦- في قوله تعالى: {قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [سورة الإسراء:٨٨]، أكثرُ من دليلٍ على بُطلان القَول بالصَّرفة، وهو:

- أوَّلًا: دلَّ سِياق الآية على فساد هذا القول؛ ذلك أنَّ التحدِّي لا يكون لِمَا كان مقدورًا عليه، فلا يقال عن الشَّيء مُنعه الإنسانُ بعد القدرة عليه، وبعد أن كان يكثُر مِثلُه منه: "إني قد جئتكُم بما لا تَقدِرون على مثْله ولو احتشدتُم له، ودعوتُم الإنسانَ والجنَّ إلى نُصرتكم فيه"، وإنما يقال: "إني أعطيتُ أنْ أَحُولَ بينكم وبين كلامٍ كنتم تستطيعون قولَه وأَمنعَكم إيَّاه، وأنْ أَحجُبَ عن عقولكم القولَ البليغ، وأُعدِمَكم اللَّفظَ الشَّريف"، وممَّا شاكَل هذا - بلْ لا يخفى على من له أدنى معرفةٍ بمخارج الكلام - أنَّ التَّحدِّي لا يكون إلا للشَّيء البديع المبتدَأ على غيرِ مِثالٍ سابق، وإلا فما فائدةُ التَّحدِّي بما هو مقدورٌ معهود قد منعوا منه؟(٣).

- أنه لو صحَّ القولُ بالصَّرفة لمَا كان في بيان عِظَم شأن هذا القرآن والتنبيه على عُلُوِّ رتبته في الفصاحة ما لا يُدرِكُه العباد - انفرَدوا أو اجتمَعوا -

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٢٥/١٧).

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٩٤/٢).

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز (٦١٥/١-٦١٨).

كبيرُ معنًى[٢]، وفي سياق ذلك يقول الخطَّابيُّ[١] في معرِض استدلاله بهذه الآية على إبطال القَول بالصَّرفة: "فأشار في ذلك إلى أَمرٍ طريقُه التكلُّفُ والاجتهاد، وسبيلُه التأَهُّبُ والاحتشاد، والمعنى في الصَّرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصِّفةَ، فدَلَّ على أن المرادَ غيرُها. واللهُ أعلم"[٢]. ويقول **الزَّرْكَشي:** "وهو قولٌ فاسد بهذا الدليل؛ فإنه يَدُلُّ على عجزهم مع بقاء قُدرتهم، ولو سُلبوا القدرةَ لم يَبْقَ فائدةً لاجتماعهم؛ لمنزلتِه مَنْزلةَ اجتماع الموتى، وليس عجزُ الموتى بكبيرٍ يُحتفَل بذِكره"[٣].

---

(١) هو: أبو سليمان، حَمْدُ بن مُحَمَّد بن إبْرَاهِيم الخَطَّابيُّ البُسْتيُّ، الفقيه، الأديب اللُّغوي، المحدِّث، الشَّافعي. هو من أوائل من ألَّف في إعجاز القرآن وإبطال القول بالصَّرفة. توفي عام ٣٨٨هـ. ينظر: وفيات الأعيان (٢/٢١٤)، وطبقات الشَّافعية (٣/٢٨٢).
وقد سلك الخَطَّابيُّ مَسْلك الأشاعرة في تأويل الصِّفات في كثير من كتبه، إلا أن الظاهر هو رجوعُه إلى مذهب أهل السنَّة والجماعة؛ وذلك للأدلَّة الآتية:

١. ما نقله شيخُ الإسلام ابنُ تيمية عن الخَطَّابي من أنَّه ألَّف كتابًا أسماه: "الغُنْية عن أهل الكلام"، قال فيه: "فأمَّا ما سألتَ عنه من الصِّفات، وما جاء منها في الكتاب والسنَّة، فإنَّ مذهب السَّلَف إثباتُها وإجراؤها على ظواهرها، ونفيُ الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قومٌ فأَبطَلوا ما أثبته اللهُ، وحقَّقها قومٌ من المثبتين فخرجوا بذلك إلى ضربٍ من التشبيه والتكييف، وإنما القصدُ في سلوك الطريق المستقيم بين الأمرين، ودِينُ الله – تعالى– بين الغالي والجافي والمقصِّر عنه". مجموع الفتاوى (٥/٥٨).
٢. ما ذكره الحافظُ ابن رجبَ الحنبليُّ عن مذهب الخطَّابي في كتابه المذكور أعلاه، من قوله: "وهذا يدلُّ على أنَّ ما يؤخذ من كلامه في كثيرٍ من كتبه – ممَّا يخالف ذلك، ويوافق طريقةَ المتكلِّمين – فقد رجع عنه؛ فإنَّ نفْيَ كثيرٍ من الصِّفات إنما هو مبنيٌّ على ثبوت هذه الطريقة". فتح الباري (٧/٢٣٧).

(٢) بيان إعجاز القرآن (ص٢٢).
(٣) البرهان في علوم القرآن (٢/٩٤). بتصرُّف يسير.

٧- أنَّ القول بالصَّرفة لا يَختلف في مضمونه عن قول كفَّار قريش: {فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ} [سورة المدثر:٢٤]، وما هو إلَّا بمثابة من قال بأنَّ عيون الناظرين إلى عصا موسى - عليه السلام - خُيِّلَ لهم أنها حيَّةٌ وثُعبان، لا أنها - في نفْسها - انقلبتْ، وهذا زعمٌ ردَّه اللهُ على أهله، وأكذَبهم فيه، وجعل القولَ به ضَرْبًا من العَمَى، فقال: {أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ} [سورة الطور:١٥][١].

٨- انعقاد الإجماع الذي نقله الرَّاسخون في العلم قرنًا بعد قرنٍ على أنَّ القرآنَ الكريم مُعجِزٌ في نفْسه، وأنَّ نَظْمَه ورَصْفَه وتأليفَه ومَبْناه لا يَهتدي إليه الخَلْقُ، ولو كان بعضُهم لبعض ظَهيرا[٢]. **يقول القُرطبيُّ** في معرض كلامه عن الصَّرفة: "وهذا فاسدٌ؛ لأنَّ إجماع الأمَّة - قبل حدوث المخالِف - أنَّ القرآن هو المعجِزُ، فلَوْ قلنا: إنَّ المنعَ والصَّرفة هو المعجِزُ، لَخرج القرآنُ عن أنْ يكون مُعجِزًا، وذلك خلافُ الإجماع، وإذْ كان كذلك عُلِمَ أنَّ نَفْسَ القرآن هو المعجِزُ؛ لأنَّ فصاحته وبلاغته أمرٌ خارق للعادة؛ إذ لم يوجد قَطُّ كلامٌ على هذا الوجه، فلمَّا لم يكن ذلك الكلامُ مألوفًا معتادًا منهم دلَّ على أنَّ المنع والصَّرفة لم يكن مُعجِزًا"[٣].

ويقول الزَّركشي: "الإجماعُ مُنعقِدٌ على إضافة الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكون مُعجِزًا غيرَه وليس فيه صِفةُ إعجاز؟ بل المعجِزُ هو اللهُ - تعالى- حيث سلبهم قدرتَهم عن الإتيان بمثْله"[٤].

ثانيًا: أدلَّة نقض القول: "بأنَّ الله سَلَبَ العلومَ التي تمكِّنهم من المعارضة":

---

(١) ينظر: لوامع الأنوار البهية (١٧٥/١)؛ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص١٠٢).

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز (٦٢٥/١)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١٩٢/٥)، الجامع لأحكام القرآن (٧٥/١)، روح المعاني (٢٩/١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧٥/١).

(٤) البرهان في علوم القرآن (٩٤/٢).

إضافةً إلى ما سبق من الأدلَّة النقلية والعقلية يمكن الاستدلالُ على بُطلان قول من ادَّعى سَلْبَ علوم العرب ومَعارفها التي لو لم تُسلَب لَتمكَّنوا من معارضة القرآن، بما يلي:

١- أنه لو سلَّمنا لكم القولَ بأنَّ العرب الذين قد عاصروا التنزيلَ سُلبتْ علومُهم ومعارفُهم على وجه القَسْر والجَبْر، فلْيكُنِ الحَكَمُ في هذا الباب ما سطَّرتْه أيديهم في الجاهلية قبل التنزيل، ولْنأتِ بأشعارٍ وخُطَب أبلغِ رجلٍ منهم، فهل كانت فصاحتُه وبلاغته بمنزلة القرآن؟ أو ما يقاربه؟

فالجوابُ بوجود ذلك محضُ افتراء ومُكابرة؛ إذ أنه لو وُجد لَكَفَتِ العربُ نفْسَها مُؤْنةَ السَّيف وذَهاب الأنفُس في محاولة دحض القرآن والقضاء عليه، ولنُقل إلينا عنهم ما يؤكِّد ذلك؛ لا سيَّما وهُم أصحابُ الخصومة، وألدُّ الأعداء، وإن كان الجوابُ بعدم وجود ذلك فقد نُقض قولُهم بالصَّرفة، ودُحضتْ شُبهتهم، ولله الحمدُ.

وفي هذا السِّياق يقول **الباقلَّانيُّ:** "على أنه لو كانوا صُرِفوا – على ما ادَّعاه – لم يكن مَن قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عمَّا كان يُعدَل به في الفصاحةِ والبلاغة، وحُسنِ النَّظم وعجيب الرصف؛ لأنهم لم يتَّحدوا إليه، ولم تَلزَمْهم حُجَّتُه، فلمَّا لم يوجد في كلامِ مَن قبْله مثْلُه عُلم أنَّ ما ادَّعاه القائل "بالصَّرفة" ظاهرُ البُطلان"(١).

ويقول عبدُ القاهر الجُرْجانيُّ: "لو أنَّ العرب كانت مُنعتْ مَنزلةً من الفصاحة قد كانوا عليها أنْ يُعرفوا ذلك من أنفُسهم كما قدَّمتُ، ولو عرفوا لَكان يكون قد جاء عنهم ذِكرُ ذلك، ولَكانوا قد قالوا للنبيِّ ﷺ: "إنَّا كنَّا نستطيع قبل هذا الذي جئتنا به، ولكنَّك قد سحرتنا، واحَتلْتَ في شيءٍ حالَ بيننا وبينه؛ فقد نسبوه إلى السِّحر في كثير من الأمور كما لا يخفى، وكان أقلُّ ما يجب في ذلك أن يتذاكروه فيما بينهم، ويَشكُوه البعضُ إلى البعض، ويقولوا: "ما لنا قد نُقصنا في قرائحنا، وقد حدث كُلُولٌ

---

(١) إعجاز القرآن (ص٢٩).

في أذهاننا"، ففي أنْ لم يُرْوَ ولم يُذكَر أنه كان منهم قولٌ في هذا المعنى – لا ما قلَّ ولا ما كَثُر – دليلٌ على أنه قولٌ فاسد، ورأيٌ ليس من آراء ذوى التحصيل"[١].

ويقول الآلوسيُّ في معرض دَحْضِ هذه الشُّبهة: "الثَّالث: أنه يَستلزم أن يكون مِثلُ القرآن معتادًا من قبلُ لتحقُّق الصَّرفة من بعدُ؛ فتجوزُ المعارضةُ بما وُجد من كلامهم مثلَ القرآن قبْلها. الرَّابع، وهو خاصٌّ بمذهب المرتضى: أنه لو كان الإعجازُ بفقدِهم العلومَ لَتَناطَقوا به، ولو تَناطَقوا لَشاعَ؛ إذِ العادةُ جاريةٌ بالتحدُّث بالخوارق؛ فحيث لم يكن دلَّ على فساد الصَّرفة بهذا الاعتبار"[٢].

٢- أنَّ في أحوال العرب التي نقلها التاريخُ آن ذاك أكبرُ دليلٍ على بُطلان قول القائل: إنَّ العرب قد سُلبتْ منهم العلومُ على وجه القَسْر والجَبْر؛ إذ إنَّ التاريخ يُثبِت عكسَ ذلك؛ فقد كانوا يَنظِمون الأشعارَ والقصائد، ويستمرُّون في تنقيحها على مدار العام، وفي هذا السِّياق يقول **ابنُ عطية** في إبطال الصَّرفة: "ونحنُ نَجِدُ العربيَّ ينقِّح قصيدته – وهي الحَوْليَّاتُ – يُبدِّل فيها ويقدِّم ويؤخِّر، ثم يَدفع تلك القصيدةَ إلى أفصحَ منه فيزيد في التنقيح، ومذهبُ أهل الصَّرفة مكسورٌ بهذا الدليل، فما كان قَطُّ في العالَم إلا من فيه تقصيرٌ سِوَى مَن يُوحي إليه اللهُ تعالى، وميَّزت فصحاءُ العرب هذا القَدْرَ من القرآن وأذعنتْ له لصِحَّةِ فِطرتِها، وخُلُوصِ سَليقتها، وأنهم يَعرِف بعضُهم كلامَ بعض ويميِّزه من غيره؛ كفِعلِ الفرزدق في أبيات جرير، والجاريةِ في شِعر الأعشى... ونحوِ ذلك ممَّا إذا تُتُبِّعَ بانَ"[٣].



(١) دلائل الإعجاز (٦١٤/١).

(٢) روح المعاني (٢٩/١).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (١٢٠/٣).

الخاتمة

الحمدُ للهِ المُنعِمِ المنَّان، الحمدُ لله حمدًا يملأ الميزان، الحمدُ لله المتفضِّل بالجُود والإحسان، له الحمدُ في الأُولى والآخرة.

وبعدُ..

فإنِّي أسأل اللهَ العليَّ القدير أن يجعلَ هذا العملَ خالصًا متقبَّلًا، حُجَّةً لنا لا علينا؛ إنه على ذلك قديرٌ، وأختم بحثي بعرض أهمِّ النتائج التي توصَّلتُ إليها من خلال الدراسة.

النتائج التي توصَّلتُ إليها من خلال البحث:

١- إقرارُ جمهور أهل العلم المحقِّقين - على اختلاف مذاهبهم، سواءٌ من القائلين بالصَّرفة أو المعارضين لها - أنَّ الخَلْقَ كلَّهم عَجَزوا عن معارضة القرآن، ولم يَقدِروا على الإتيان ولو بآيةٍ من مِثْله، مع قيامِ التحدِّي لهم مجتمعين ومتفرِّقين، وتقريعِهم ورميهم بالعَجْز.

٢- اختلف أهلُ العلم في الوجْه الذي من أجْله عَجَزَ أهلُ الأرض كلُّهم عن معارضة القرآن، وهذه خلاصةُ أقوالهم:

- أنَّ الله صرفهم عن ذلك إمَّا بصرفِ الهِمَم وتثبيطِ النُّفوس، وهو قولُ النَّظَّام وتَبِعَه عليه أكثرُ القائلين بالصَّرفة، وإمَّا بسلبِ علومهم التي تمكِّنهم من ذلك، وهو قولُ الشّريف المرتضى وتبعه عليه قِلَّة.
- أنَّ الله - سبحانه وتعالى - أنزله على درجةٍ عالية من البلاغة والفصاحة، والعلوم الغيبيَّة والشَّرعية التي أعجزتهم، وهذا الأخيرُ هو الصوابُ المقطوع بصحَّته.

٣- القائلون بالصَّرفة لم يتَّفقوا على قولٍ واحد؛ فقد بالغ بعضُهم حتى جعل الصَّرفةَ هي الوجْهَ في إعجاز القرآن فقط دون الفصاحة والنَّظْم

والبلاغة، وتَوسَّط بعضُهم فجمع بين النَّقيضين: القولِ بالصَّرفة، والإعجازِ البلاغي.

٤- أنَّ نِسبة القول بالصَّرفة إلى مذهب المعتزلة غيرُ صحيح؛ إذ إنَّ كثيرًا ممَّن ينتسب للمذاهب الأخرى قد تَبَنَّى هذا القولَ أيضًا، والصَّحيحُ أنْ يُنسب إلى الأشخاص لا إلى المذاهب العَقَديَّة؛ تحرِّيًا للإنصاف.

٥- اجتماع عددٍ من أهل العلم من مختلِفِ المذاهب العَقَدية على نَبْذِ القَول بالصَّرفة، وإنكارِهِ واستهجانِ القول به.

٦- بُطلان القول بالصَّرفة من جميع الوجوه؛ نقلًا وعقلًا وإجماعًا.

٧- أنَّ جمهورَ الأمَّة على أنَّ إعجاز القرآن في ذاته، وأنه مُعجِزٌ بنَظْمه ورَصْفه وتأليفه، وبيانه وفصاحته وبلاغته الخارجة عن معهود البشَر وطاقاتهم وقدراتهم البشَرية، بل إنَّ محمدًا ﷺ – وهو أَشرفُ الخَلْق – يَظهَر الفرقُ بين كلامه وبين القرآن لكلِّ من له أدنى تدبُّر، وهذا هو الذي يرتضيه العقلُ وتسكُن إليه النَّفْسُ.

وأختمُ بحثي هذا بقول عبدِ القاهر الجُرْجاني، بعد إبطاله للقول بالصَّرفة بالأدلَّة والبراهين العقلية والنقلية: "وظهر به وبسائر ما تقدَّم أنَّ القولَ بالصَّرفة – ولا سيَّما على هذا الوجه– قولٌ في غاية البُعد والتَّهافُت، وأنَّه مِن جنس ما لا يُعذَر العاقلُ في اعتقاده، ولم أقُل: "ولا سيَّما على هذا الوجه" وانا أعني أنَّ للقَول بها على الوجْه الأول مَسَاغًا في الصحَّة، ولكني أردتُ أنَّ فساده كأنه أظهرُ، والشَّناعةَ عليه أكثرُ "[1].

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وأصلِّي وأسلِّم على نبيِّنا محمدٍ سيِّد الأوَّلين والآخِرين، والمبعوثِ رحمةً للعالمين.



(١) دلائل الإعجاز (١/٦٢٥).

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١- الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.

٢- أخبار النحويين البصريين، الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي، أبو سعيد (المتوفى: ٣٦٨هـ)، تحقيق: طه محمد الزيني، ومحمد عبد المنعم خفاجي، المدرسين بالأزهر الشريف، مصطفى البابي الحلبي، الطبعة: ١٣٧٣هـ- ١٩٦٦م.

٣- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٤- الأزمنة وتلبية الجاهلية، محمد بن المستنير بن أحمد، أبو علي، الشهير بقطرب (المتوفى: ٢٠٦ هـ)، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

٥- الاعتقاد، أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمد بن محمد (المتوفى: ٥٢٦هـ)، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن الخميس، دار أطلس الخضراء، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٦- الإعجاز البلاغي - دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ١٩٩٧م- ١٤١٨هـ.

٧- إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء، دراسة نقدية مقارنة، محمد موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء - جدة، الطبعة: ١٣٧٣هـ - ١٩٦٦م.

٨- إعجاز القرآن للباقلاني، أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب (المتوفى: ٤٠٣هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف - مصر، الطبعة: الخامسة، ١٩٩٧م.

٩- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (المتوفى: ١٣٥٦هـ)، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثامنة - ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.

١٠- الإعجاز في دراسات السابقين- دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٧٤م.

١١- أعلام النبوة، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، دار ومكتبة الهلال - بيروت، الطبعة: الأول - ١٤٠٩هـ.

١٢- الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار - مايو ٢٠٠٢م.

١٣- الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، وضع حواشيه: عبد الله محمد الخليلي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

١٤- إنباه الرواة على أنباه النحاة، المؤلف: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (المتوفى: ٦٤٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي -القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ -١٩٨٢م.

١٥- البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار

هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

١٦- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، (ثم صورته دار المعرفة، بيروت، لبنان - وبنفس ترقيم الصفحات).

١٧- بيان إعجاز القرآن، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة: ذخائر العرب (١٦)]، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ)، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م.

١٨- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣م.

١٩- تاريخ العرب القديم، توفيق برو، دار الفكر، الطبعة: إعادة الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

٢٠- تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٢١- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ثقة الدين، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٤هـ.

٢٢- التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٢٣- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.

٢٤- الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

٢٥- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، تحقيق: علي بن حسن - عبد العزيز بن إبراهيم - حمدان بن محمد، دار العاصمة، السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٢٦- الحيوان، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ.

٢٧- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب المؤلف: عبد القادر بن عمر البغدادي (المتوفى: ١٠٩٣هـ) تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة: الرابعة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٢٨- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تحقيق: مراقبة محمد عبد المعيد

ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية – صيدر اباد/ الهند، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.

٢٩- دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

٣٠- الرسالة الشافية، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة: ذخائر العرب (١٦)]، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م.

٣١- رسالة في إعجاز سورة الكوثر، الزمخشري، تحقيق: حامد خفاف.

٣٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٣٣- سر الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (المتوفى: ٤٦٦هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

٣٤- سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، دار الحديث- القاهرة، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٣٥- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (المتوفى: ٥٤٤هـ)، دار الفيحاء – عمان، الطبعة: الثانية – ١٤٠٧هـ.

٣٦- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميري اليمني (المتوفى: ٥٧٣هـ)، تحقيق: د حسين بن عبد الله العمري – مطهر بن علي

الإرياني – د يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر (بيروت – لبنان)، دار الفكر (دمشق – سورية)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
٣٧- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
٣٨- طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (المتوفى: ٧٧١هـ)، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ.
٣٩- طبقات الشافعيين، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: د أحمد عمر هاشم، د محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، تاريخ النشر: ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
٤٠- طبقات المفسرين، للداوودي، محمد بن علي بن أحمد، شمس الدين الداوودي المالكي (المتوفى: ٩٤٥هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، راجع النسخة وضبط أعلامها: لجنة من العلماء بإشراف الناشر.
٤١- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلوي الطالبي الملقب بالمؤيد بالله (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المكتبة العصرية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.
٤٢- العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (المتوفى: ٤٧٨هـ)، تحقيق: الدكتور: محمد الزبيدي، دار سبيل الرشاد – بيروت.
٤٣- العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٤٤- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، أبو منصور (المتوفى: ٤٢٩هـ)، دار الآفاق الجديدة - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٧٧م.

٤٥- الفصل في الملل والأهواء والنحل، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، مكتبة الخانجي - القاهرة.

٤٦- فوات الوفيات، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين (المتوفى: ٧٦٤هـ) تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، الطبعة: الأولى، الجزء: ٢، ١٩٧٤م.

٤٧- الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، شمس الدين، ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، دار الكتب العلميّة، ١٤٠٨هـ.

٤٨- القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (المتوفى: ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٤٩- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤هـ.

٥٠- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى: ١١٨٨هـ)، مؤسسة الخافقين ومكتبتها - دمشق، الطبعة: الثانية - ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

٥١- مباحث في إعجاز القرآن، د. مصطفى مسلم، دار القلم - دمشق، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٥٢- مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

٥٣- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢هـ.

٥٤- المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٥٥- المحيط في اللغة، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، المشهور بالصاحب بن عباد (المتوفى: ٣٨٥هـ).

٥٦- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

٥٧- المعجزة الكبرى القرآن، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي.

٥٨- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٥٩- المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار، أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد الأسدآبادي (المتوفى: ٤١٥هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور: خضر محمد نبها، دار الكتب العلمية.

٦٠- مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠هـ.

٦١- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٢هـ.

٦٢- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي (المتوفى: ١٤٠٨هـ)، دار الساقي، الطبعة: الرابعة ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

٦٣- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (المتوفى: ٣٢٤هـ)، تحقيق: نعيم زرزور، المكتبة العصرية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٦٤- الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (المتوفى: ٥٤٨هـ)، مؤسسة الحلبي.

٦٥- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني (المتوفى: ١٣٦٧هـ)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة: الطبعة الثالثة.

٦٦- الموضح عن جهة إعجاز القرآن (الصرفة)، الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي، تحقيق: محمد رضا الأنصاري القمي، جمع البحوث الإسلامية – مشهد – إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٦٧- النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد بن عبد الله دراز (المتوفى: ١٣٧٧هـ)، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية، قدم له: أ. د. عبد العظيم

إبراهيم المطعني، دار القلم للنشر والتوزيع، الطبعة: طبعة مزيدة ومحققة ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

٦٨- النكت في إعجاز القرآن مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة: ذخائر العرب (١٦)] المؤلف: علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي (المتوفى: ٣٨٤هـ)، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام دار المعارف بمصر الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م.

٦٩- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت.